

ليلى عبدالجواد إسماعيل

القديس شنودة الأخميمي الأديبي

ودوره فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى (٣٣٣ - ٤٥١ م)

" شهية هى أخبار القديسين كالمياه للغروس الجدد "

كما يقول مار اسحق

وأخبار القديس شنودة الأخميمي الأديبي رئيس المتوحدين شهية حقاً ، فالرجل من الشخصيات البارزة والمؤثرة والفعالة فى تاريخ مصر الدينى والسياسى والاجتماعى فى العصر البيزنطى .

وقد أمكن التعرف على سيرة حياة الرجل وأعماله من خلال سيرته الذاتية التى سطرها تلميذه " ويصا " (١) وخليفته فى رئاسة الدير ، تلك السيرة التى كشفت النقاب عن حياة القديس شنودة منذ طفولته الباكرة وحتى وفاته ، وتطرق فيها ويصا للتلميذ البار بأستاذه ومعلمه - إلى الحديث عن أعمال القديس وإنجازاته ودوره الهام فى مختلف مناحى الحياة فى مصر خلال الفترة التى عاشها ، والأثر العميق الذى تركه الرجل فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى كما سيتضح من خلال صفحات هذا البحث.

(١) ويصا من أهالى مدينة أبصاى (المنشأة حالياً ، أحد مراكز محافظة سوهاج) التحق بالدير الأبيض ، وتلمذ على يد أستاذه القديس شنودة ، ثم تقلد رئاسة ديريه بعد وفاته ، وترك الأنبا تراثاً روحياً عظيماً ، فقد كتب سيرة معلمه الأنبا شنودة ، كما كتب رسائل وأقوال كثيرة إلى الرهبان والراهبات ، وكذلك كتب لرجال الدين وكبار رجال الدولة فى إقليمه ينصحهم نصائح روحية نافعة ، لمزيد من التفاصيل انظر: الأنبا متاوس ، سيرة القديس الأنبا ويصا تلميذ الأنبا شنودة ومقتطفات من أقواله ، ص ١٥ - ٢٦ .

ذكر ويصا أن الطفل شنودة^(١) ولد في السابع من بشنس في قرية تدعى شنلالة^(٢) (شندويل الحالية) على مقربة من أخميم^(٣) (بانوبوليس Panopolis) لذلك ينسب إليها القديس شنودة ويعرف بالأخميمي. ويلاحظ هنا أن ويصا لم يحدد تاريخاً بعينه لميلاد القديس فقد حدد اليوم دون السنة ، لذلك تضاربت آراء المؤرخين المحدثين حول العام ، الذي ولد فيه شنودة ، فذكر البعض إنه ولد في عام ٣٤٣م على الأرجح^(٤). وانفرد كوهن Kuhn بأن حدد ميلاده في عام ٣٤٨

(١) اختلفت الآراء حول معنى كلمة شنودة ، فجاء في سيرة حياته ، التي كتبها تلميذه ويصا أن معناها (الابن الإله) ، وقيل أنها تعنى بالصعيدية Shenouda أى (خادم الله أو المكرس لله) . ولمزيد من التفاصيل عن معنى كلمة شنوة انظر : سيرة حياة القديس شنودة بقلم تلميذه: ويصا التي نشرها اميلينو في

Mémoires Publiés par les membres de la Mission Archéologique Francaise au Caire (1885-1886), T. 4, Paris. (1888), P. 301.

ميخائيل مكسى إسكندر ، المخطوط الأصلي لسيرة وأعمال القديس العظيم أنبا شنودة ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص ٦ ؛ رعوف حبيب ، الرهبنة الديرية في مصر ، القاهرة ١٩٧٨ م ، ص ١٧٧ ، هامش ١ ؛ وانظر أيضاً: شنودة ماهر اسحق ، الأدب القبطي ، ص ٤٩.

(٢) شنلالة أو شندويل هي من القرى القديمة ، واسمها شندويد ، واسمها القبطي كما ذكر اميلينو في جغرافيته هو Schenalalet ومعناها غابة من الكروم ، وقال هي من قرى قسم أخميم ، والآن بمركز سوهاج الذي تحولت إليه القرى الواقعة غربى النيل بما فيها شنلالة أو شندويل.

انظر: محمد رمزي ، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ج ٤ ، ق ٢ ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٢٨.

(٣) أخميم هي من أقدم المدن المصرية ، واسمها بالمصرية القديمة هو " برمين " بمعنى بيت الإله مين ، وبالقبطية Chemin أو Kmin ، واسمها اليونانى Panopolis أى مدينة الإله بأن ، الذى يقابل الإله مين عند الفراعنة ، وهو الذى يرمز للخصوبة والنسل ، واسمها العربى أخميم ، وهى من كور صعيد مصر. انظر: محمد رمزي ، القاموس الجغرافى ، ج ٤ . ق ٢ ، ص ٨٩ . ٩٠ ؛ وانظر أيضاً: على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة ، ج ٨ ، القاهرة ١٩٩٠م ، ص ١١٠ . ١١٢.

(٤) انظر: رعوف حبيب ، الرهبنة الديرية ، ص ١٧٧ ؛ ميخائيل مكسى إسكندر ، المخطوط الأصلي ، ص ٧ ؛ دورليان ، القديسون المصريون ، ترجمة ميخائيل مكسى إسكندر ، ومريام جميل سليمان ، جزءان في مجلد واحد ، القاهرة ٢٠٠٢ ، ص ٢٨٦.

م.^(١)، ولكن أجمع غالبية الباحثين على أن ميلاد القديس كان في ٢ مايو من عام ٣٣٣ م. ، وقد جاء في رواية الأتبا ويصا ما يؤكد صحة هذا الرأي^(٢).

وكانت أسرة القديس شنودة . كما يروى ويصا^(٣) . أسرة مسيحية صغيرة ، تدعى الأم دروبا Droba ، ويدعى الأب إيجوس Abgous ، واشتهر كلاهما بالورع والصلاح مع التقوى والفضيلة ، وكان إيجوس من ذوى اليسار فى قريته شنلاله ، إذ كان يمتلك أرضاً زراعية وقطيعاً من الأغنام يراعاها له أحد الرعاة فى البرية.

وعكف الوالدان على تربية وحيدهما شنودة تربية صالحة ، وغرسا فيه بطهرهما وعفافهما روح الفضيلة ، وحببا إليه التقوى والورع ، لذا شب الفتى مستقيماً معتدلاً ، محباً للدين والسير على تعاليمه ، صادقاً فى كلامه وحديثه " كالشئء المتبل بالملح " كما يذكر ويصا^(٤) . وعمل شنودة فى صباه برعى أغنام أبيه مع الرعاة بعد أن تكاثر عددها ، وقد فصل ويصا لذلك فى روايته^(٥) .

ولاحظ الأب إيجوس على ابنه شنودة . خلال الفترة التى قضاها فى رعى الأغنام - ميلاً إلى العزلة ، وحرصاً على الصلاة ، وحباً للعبادة وحياة الزهد والتقشف ، وأراد الأب أن ينمى فى ابنه هذه الفضائل ، لذلك اصطحبه يوماً لزيارة خاله الأتبا بجول Bigoul^(٦) ، وكان من الرهبان ذاتعى

(1) Kuhn, Shenute, Saint, in Coptic Encyclopedia, Vol. 7 ed. Atiy, Aziz iS, New York (1991), P. 2121.

(٢) انظر: Vie de Schnoudi, (ed) Amelineau, P. 468. ؛ وانظر أيضاً: حكيم أمين عبدالسيد ، دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ٢٨ ؛ والترز ، الأديرة الأثرية فى مصر ، ترجمة: إبراهيم سلامة ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ٣٥١ ؛ رشدى عازر أفلاديوس ، من أبطال البرية الأتبا شنودة رئيس المتوحدين ، الإسكندرية بدون تاريخ ، ص ١٤ ؛ مجدى سلامة ، الأتبا شنودة ، رئيس المتوحدين الصعيدي ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص ٧ ؛ لوكاس الأتبا بيشوى ، سيرة وأقوال وعظات الأتبا شنودة رئيس المتوحدين ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٢٦ .

(3) Vie de Schnoudi, (ed) Amelineau, PP. 302-305.

(4) Vie de Schnoudi, P. 305.

(5) Vie de Schnoudi, PP. 305-306.

(6) Vie de Schnoudi, P. 307.

الصيت ، وممن يمارسون رهبانية القديس باخوميوس ، الجماعة الديرانية ، فى دير يقع فى قرية إدريب غربى النيل بالقرب من سوهاج^(١).

أسس بجول هذا الدير حوالى عام ٣٥٠ م. فى الصحراء غربى النيل قبالة أخميم ، ولم يكن لديه فى بداية الأمر سوى عدد قليل من الرهبان ، الذين تتلمذوا على يديه ، ولكن سرعان ما تكاثر عدد هؤلاء ، الرهبان حتى بلغ ثلاثين راهباً ، كانوا النواة الأولى للدير الأبيض. وقد قام بجول بتوسعة ديره ، فبدأ بحفر قناة كبيرة حتى تصل إليهم مياه النيل ، وغرس أشجار صغيرة للنخيل والزيتون ، وزرع رهبانه أشجار الفاكهة والخضروات وغير ذلك ، كما أنشأ داخل الدير العديد من الورش لمختلف المهن ، حتى يمكنه سد كافة احتياجات الدير ورهبانه^(٢) ، ويظهر ذلك بجلاء من خلال الصفحات المتعلقة بحياة الأنبا بجول ، والتي كتبها على ما يبدو تلميذه القديس شنودة ، واتضح من خلالها كذلك الإصلاح الشامل الذى قام به الأنبا بجول فى ديره ، علاوة على ما وضعه من قواعد جديدة ، فقد جمع تلاميذه الثلاثين ، وأخذ عليهم تعهداً كتابياً ألا يتخلوا عن الطاعة وعن ديرهم ، وأن يقسموا أمام الله بالبقاء فى الدير وعدم مغادرته ، وأن يحبوا حياة الزهد والتقشف والعفة مع التبعية لرئيس الدير ومقدمه^(٣).

وقد جاء فى مخطوطة رقم ٢٣٠ فى متحف بورجيا Borgia (بنابولى حالياً) على لسان كاتبها وهو أحد تلاميذ الأنبا بجول " أن أبينا بجول لا يرسم طريقاً ، ولا يقدم لنا شعائر وطقوس مختلفة عن التى سبق ومارسها وكتبها آباءنا السابقين (باخوميوس وأتباعه) من حيث الصلوات المفروضة على الراهب ، ووجبات الطعام وغير ذلك ، فقد صار على نفس نظام باخوميوس ، وإن كان قد حاول إدخال بعض التطورات بما يتفق وتطور نظام الرهبانية ، فيرجع إليه الفضل فى إتقان حياة الرهبانية الديرانية الجماعية ، وفصلها تماماً عن الحياة التوحيدية بحائظ لا يمكن تعديده^(٤).

(١) أدريب Adrab مدينة فرعونية قديمة، تنسب إلى جبل أدريية ، الذى يقع الدير الأبيض فى أسفله، وينسب إليها كذلك القديس شنودة، فيعرف بشنودة الأدرىيى ؛ وكانت تسمى فى كتب القبط أترىيى أو أدرييه ، وهى بإقليم أخميم.

(2) E. Revillout., " Sénuti le prophète " dans Revue de L'Histoire des Religions, T. 8, Paris. (1883), P. 407.

(3) Revillout., Sénuti le prophete, P. 408.

(4) Revillout., Sénuti le prophète, P. 409.

أما عن زيارة شنودة بصحبة أبيه لدير خاله الأتبا بجول واللقاء بينهما ، فقد فصل له ويصا فذكر أن شنودة ووالده حينما اقتريا من الدير ، وأصبحا على بعد مقدار ميل ، كان الأتبا بجول يستضيف في ديره عدد من كبار الأراخنة فى مدينة أحميم، وعدد من رؤسائها ، كانوا قد حضروا إليه من أجل أن يعلمهم ويرشدهم ويهديهم لخلاص نفوسهم ، وإذا به يقول لهم فجأة " انهضوا حتى نتلقى الأرشمنديس ، رئيس الديارة ، فقد اقترب منا "(١).

هنا شعر الأراخنة بالدهشة لأنهم لم يسمعا فى أحميم عن أى أرشمنديت (أى رئيس متوحدين) . وهو كما يذكر ريفيو Revillout^(٢) لقب لم يحمله فى مصر سوى قادة الفرق الدينية ، وكان بطريك الإسكندرية وحده هو الذى يمنح هذا اللقب . إلا أن احترامهم للأب بجول دفعهم للخروج معه بدون تردد، وإذا بهم أمام طفل لا يتعدى عمره التاسعة أو العاشرة وهو الفتى شنودة.

ويذهب ويصا أبعد من ذلك فيذكر أن الفتى شنودة عندما رأى خاله بجول حياه قائلاً: " السلام عليك أيها الشيخ الطاهر ... مبارك أنت فى جميع أمورك " وإذا كان الأراخنة قد تعجبوا من أمر هذا الفتى إلا أن الأتبا بجول أمسك بيد الفتى شنودة ، ووضعها على رأسه وقال له " باركنى يا أبى الأرشمنديت "(٣). ويعلق أوليرى على ذلك بقوله أن الأتبا بجول كان يود أن ينال بركة الصبى شنودة ، لأنه تتبأ له بأنه سيكون قديساً كبيراً ورئيساً للمتوحدين^(٤) كما اتضح من رواية ويصا سالفة الذكر .

ولم يقدر للفتى شنودة العودة بصحبة أبيه إيجوس ، بل ظل ملازماً لخاله بجول ، الذى طلب من والده ، أن يدعه عنده أسبوع حتى يختبره ويمتحنه كما يذكر ويصا^(٥) مما يؤكد على أن الأب

(1) Vie de Schnoudi, PP. 307-308.

والأراخنة مفردا أرخون وهو من ألقاب حكام الأقاليم فى العصر البيزنطى.

(2) Revillout., Sénuti, P. 411.

(3) Vie de Schnoudi, P. 308.

(٤) أوليرى ، قديسو مصر حسب التقويم القبطى ، ترجمة: ميخائيل مكسى اسكندر ، القاهرة ٢٠٠٠ ، ص ٤١٦ .

(5) Vie de Schnoudi, P. 308.

كان يقصد بزيارة دير الأنبا بجول إلحاق ابنه بالمدرسة الملحقة بالدير لتعليم النشء من أبناء البلدان المجاورة ، علاوة على التبرك واكتساب الفضائل.

ونجح شنودة فى الاختبار بجدارة ، فقد رآه خاله الأنبا بجول مكباً على العبادة والصلاة ، منتشفاً فى طعامه وشرابه ، لذلك رسمه راهباً ، وألبسه اسكيم الرهبانية^(١) فى هذه السن الصغيرة ، وبذلك دخل شنودة فى زمرة الرهبان والنسك^(٢) . ومنذ ذلك الحين اسلم شنودة نفسه للعبادة . كما يذكر ويصا^(٣) . بقلب مستبشر ، وجهاد شديد ، وسهر كثير ، وصوم مستمر بأحسن نظام ، فلا يفطر كل يوم إلا عند الغروب ... وكان طعامه خبزاً وملحاً وماء فقط ... " . ويذكر ويصا فى موضع آخر^(٤) أنه كان يصلى اثنى عشرة صلاة ، وكان قليل النوم بالليل ، إذ يقضى الليل فى العبادة والتأمل ... وكان دائم البكاء حتى صار البكاء عنده حلو كالعسل والشهد على حد تعبير ويصا . كذلك كان يصوم الأربعين يوم المقدسة ، وقد أكد ذلك المقرئى بقوله : " أنه كان ممن يطوى فى الأربعين إذا صام "^(٥) .

عنى الأنبا بجول بتتقيف شنودة ، وعمل على تدريسه الكتاب المقدس دراسة عميقة ، مما ترك أثراً واضحاً فى مقدرته على الخطابة والبلاغة فى الكتابة ، حتى إنه حفظ أجزاء من الكتاب المقدس عن ظهر قلب ، كذلك اهتم الأنبا بجول اهتماماً خاصاً ، بأن يتقن شنودة اللغتين القبطية واليونانية ، فنبغ فى الأولى نبوغاً عظيماً ، ودرس الثانية دراسة جيدة ، وعن طريق هذه اللغة أمكنه التفاهم مع كبار الحكام من الإغريق (اليونانيين البيزنطيين)^(٦) .

ولم يكتف شنودة بدراسة الكتاب المقدس واللغتين القبطية واليونانية بل اهتم كذلك بدراسة باقى العلوم الكنسية ، ولم يقتصر على دراستها لنفسه بل أخذ يعلمها للرهبان وغيرهم ، ممن يفدون

(١) الاسكيم كلمة قبطية معناها شكل ، وهى عبارة عن قطعة من الجلد المضفور ، تتخلله الصليبان على أبعاد متساوية ، وهو يحيط بمن يرتديه من الأمام والخلف ، وبه صليبان كبيران أحدهما للصدر والآخر للظهر ، ثم اثنى عشر صليباً صغيراً من الجلد المضفور ، ويلبس الأسكيم النسك الذين بلغوا درجة عالية من النسك والتقىف .

(2) Vie de Schnoudi, P. 310.

(3) Vie de Schnoudi, P. 311.

(4) Vie de Schnoudi, PP. 313-314.

(٥) المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، م ٢ ، ص ٥١١ .

(٦) إيريس حبيب المصرى ، تاريخ الكنيسة القبطية ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥٢م ، ص ٤١٢ .

إلى الدير لوفاء ما عليهم من نذور ، فكان يجمعهم حوله ، ويعلمهم ويثبتهم على الإيمان الأرثوذكسى فيذكر تلميذه وبصا: " كان أبى شنودة يوعظ الكبار والصغار فى سائر عمره ... وكانت أقواله فى أفواه محبى التعاليم الإلهية أحلى من العسل والشهد "(١).

ظلت حياة العزلة والانفراد تراود الأنبا شنودة ، فكثيراً ما كان يترك الدير وزملائه الرهبان ، ويتوغل فى البرية المترامية الأطراف ، ويظل عاكفاً على العبادة والعمل ، حتى أنه كان يطوى فى عزلته الأيام والشهور بل والسنون فيذكر وبصا(٢): " أن أبى أقام فى البرية خمس سنين ، لم يشاهد الحقل المزروع والغلال فى الجرون ، ولا أوان النيل ، ولا يشتهى شيئاً من أصناف هذا العالم ليشاهده وينظر إليه " ثم ما لبث أن عاد إلى ديره وأخوته الرهبان. وتجدر الإشارة إلى أن الصلة لم تنقطع بين الأنبا شنودة ورهبان الدير ، فكثيراً ما كان يزوره فى عزلته عدد منهم يستشيرونه فى كثير من أمورهم ، ويسألونه عما يعن لهم من أسئلة واستفسارات(٣). مما يدل على ما كان يتمتع به الأنبا شنودة من مكانة متميزة بين أخوته رهبان الدير ، لذلك ما أن توفى خاله بجول فى عام ٣٨٣ م. وقيل أيضاً فى عام ٣٨٥ م.(٤) حتى وقع اختيارهم عليه ليصبح خليفة له فى رئاسة الدير.

وما أن تولى الأنبا شنودة رئاسة الدير ، حتى قام ببناء كنيسة كبيرة ، وهي التي يطلق عليها اليوم اسم دير الأنبا شنودة أو الدير الأبيض وتقع أسفل جبل أدريه على بعد ٨ كم من سوهاج ، وعن بناء هذه الكنيسة يذكر الأنبا وبصا " أعددنا جميع الآلات وأخرجنا الفعلة ... ووضعنا أساس الكنيسة ... ثم اجتمع إلينا صناع كثيرين من البنائين والحجارين والنجارين وسائر أرباب الصناعات ... وأكملنا البناء فى ستة أشهر "(٥) وشيدت الكنيسة من الحجر الجيرى الأبيض ، وأخذت معظم هذه الأحجار من أطلال ومعابد مصرية قديمة كانت قائمة على مقربة من الدير ، بدليل ما يشاهد

(1) Vie de Schnoudi, PP. 311,312.

(2) Vie de Schnoudi, P. 315, 316.

(3) Vie de Schnoudi, P. 317.

(٤) حول تاريخ وفاة بجول انظر: Kuhn, Shenute, P. 2131 ؛ رعوف حبيب ، الرهنية ، ص ١٧٨.

(٥) انظر: Vie de Schnoudi, PP. 353, 354. وانظر أيضاً : تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة فى القرن

القرن الثانى عشرة والمسمى بتاريخ أبو صالح الأرمنى ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص ١٠٩ ؛ المقريزى ،

المواعظ ، م ٢ ، ص ٥٠٧.

على أسطح تلك الأحجار من رسوم وكتابات هيروغليفية عديدة. كذلك شيدت الكنيسة على طراز المعابد المصرية الفرعونية ، التي وقع بصر المعماريين عليها أول ما وقع ، وهذه الخاصية تنفرد بها هذه الكنيسة أو ذلك الدير عن غيره من الأديرة الأخرى ، إذا أنها تبرز الطراز المعماري المصرى الأصيل فى روحه وطابعه لذلك جذبت إليها الألوف من الزائرين من مشارق الأرض ومغاربها من بلاد الشام واليونان وبلاد الغال (فرنسا) وإسبانيا وغيرها من الأقطار البعيدة^(١).

نظام الأنبا شنودة الرهبانى الديرانى:

قام الأنبا شنودة بوضع سلسلة من القوانين والتنظيمات الديرية ، تشبه قوانين القديس باخوميوس ، التى سار عليها خاله الأنبا بجول ، ولكنه طورها حتى تتلائم مع عصره ، ومع احتياجات الرهبان ، ومع الدور الذى بدأت تلعبه الرهبانية فى حياة الكنيسة^(٢). فيذكر ويصا " أن أبى الطاهر أنبا شنودة قد وضع تعاليم كثيرة ... ووضع قوانين لأولاده الرهبان ولغير أولاده من سائر الرهبان القديسين "^(٣).

فبالنسبة للرهبان الجدد: كان على طالب الرهبانية أن يقضى فترة اختبار لبعض الوقت خارج الدير ، وليس داخله ، كما فى نظام القديس باخوميوس حتى تتكشف استعداداته لممارسة حياة العبادة والزهد والتقشف ، فإذا أثبت صلاحية ، أجاز ، وسمح له بدخول الدير ، والإقامة فيه ومساواته فى الحقوق والواجبات مع بقية رهبان الدير على اختلاف مراتبهم ، وهذا ما كان يحدث فى أنظمة

(١) رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٩٣. وعن وصف الكنيسة انظر: بتلر ، الكنائس القبطية القديمة فى مصر ، ترجمة إبراهيم سلامة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٩٣م ، ص ٢٨٩-٢٩٠ ؛ وانظر أيضاً: سومرز كلارك ، الآثار القبطية فى وادى النيل ، ترجمة: إبراهيم سلامة ، القاهرة ، ١٩٩٧م ، ص ٣١٨-٣٤٧ ؛ أما عن التاريخ الفعلي للبناء فهو غامض وعنه انظر: والترز ، الأديرة الأثرية ، ترجمة: إبراهيم سلامة ، ص ٣٥٢ ؛ تاريخ أبو المكارم ، ج ٤ ، ص ١٢٠.

(٢) شنودة ماهر ، الأدب القبطى ، ص ٥٠.

(3) Vie de Schnoudi, P. 312.

القديس باخوميوس والأنبا بجول ، ولكن الجديد الذى أدخله الأنبا شنودة أنه على الراهب المستجد أن يقدم عن نفسه تعهدًا كتابيًا يحفظ فى أرشيف الدير للدلالة على طاعته ، وقد أشار إليه الأنبا ويصا ، كما أوردت المخطوطات القبطية صورة هذا التعهد أو الميثاق على النحو التالى: " أتعهد أمام الله فى هذا المكان المقدس ، وتشهد على الكلمات التى تخرج من فمى ، أننى لن أذنب جسدى بأية وسيلة ، ولن أسرق ، ولن أشهد زوراً ، ولن أكذب ، ولن أبشر بأية طريقة أعمال الغش فى الخفاء ، فإذا نقضت هذا العهد فلأشاهد ملكوت السموات دون أن أدخلها ، وليعذب الله نفسى وجسدى فى نار جهنم إذا نقضت هذا العهد الذى أخذته على نفسى فى حضرته " (١).

ويلاحظ أن صورة هذا التعهد تختلف عن صورة التعهد الذى سبق وأخذه الأنبا بجول على رهبانه ، إن كان كلاهما يستهدف تقوية مركز رئيس الدير ومقدمه ، خاصة فى حالات الجدل والمناقشة ، مع عدم التفريط فى حقوق الرئاسة التى اكتسبها الأنبا بجول والأب شنودة من الدير الباخومى (٢).

أما عن نوعية رهبان أديرة الأنبا شنودة ، فقد كانوا مصريين خُص على عكس أديرة القديس باخوميوس ، التى كانت أديرة دولية عالمية الطابع ، تضم بين جناتها الرهبان المصريين والأجانب ، فترى فيها الراهب المصرى والبيزنطى واليونانى والأفريقى واللاتينى على السواء ، أما أديرة شنودة فكانت مصرية الطابع لا يدخلها إلا الرهبان المصريون (٣). ولعل هذا كان واحداً من الأسباب التى جعلت الكثير من الرحالة الأجانب ، الذين زاروا مصر وأديرتها يؤثرون الصمت ، ولا يذكرن شيئاً البتة عن شنودة وأديرته ، ومن أبرز هؤلاء: روفينوس الذى قضى بمصر ستة أشهر خلال عام

(١) انظر: Vie de Schnoudi, P. 407. ؛ انظر أيضاً: رول ، موجز تاريخ القبط ، الترجمة العربية ، ص ١٥٤.

١٥٥ ؛ وانظر أيضاً: ساجي سليمان ، أنبا شنودة رئيس المتوحدين ، اسكندرية ١٩٩٣م ، ص ١٥ ؛ رشيدى عازر ، من أبطال البرية الأنبا شنودة رئيس المتوحدين ، اسكندرية بدون تاريخ ، ص ٢٢٠.

(٢) انظر: الفونسو يسطس ، " المقاومة الوطنية فى مصر البيزنطية " رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ١٩٧٥م ، ص ١٣٩.

(٣) عزيز سوربال عطيه ، نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس ، الرسالة الثالثة ، جمعية مارمينا بالإسكندرية مايو ١٩٤٨م ، ص ١٧٧ ؛ روف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٩٢ ، مصطفى العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، إسكندرية ١٩٩٢م ، ص ٣٤٥.

٣٧٣ م. ، وجيروم الذى جاء إلى مصر عام ٣٨٦ م. لزيارة أديرتها ، وكذلك الرحالة الشهير بلاديوس أسقف هيلينوبوليس Helenopolis الذى قضى السنوات من ٣٨٨-٣٩٩ م. فى طيبة ، ومن ٤٠٦-٤١٢ م. فى وادى النطرون ، والرحالة كاسيان الذى جاء إلى مصر بين عامى ٣٩٠ ، ٤٠٠ م. وزار أديرتها حتى طيبة^(١). وليس من المعقول أن هؤلاء الرحالة الذين أقاموا فى مصر كانوا يجهلون أديرة الأنبا شنودة ، ولكن أغلب الظن إنهم سمعوا قسوة قوانينها ، وصعوبة الحياة فى ظلها لذلك لم يستسيغوا مبادئها ، وآثروا عدم التحدث عنها وعن مؤسسها^(٢). كما أن البعض أرجع السبب فى ذلك إلى وجود حاجزي اللغة والثقافة بين العناصر الإغريقية اليونانية وبين المصريين^(٣).

وإذا كانت أديرة شنودة قد أغلقت أبوابها أمام الأجانب فقد فتحها على مساريحها أمام المصريين من أفراد الشعب ، الذين كانوا يأتون إليها أيام الأحاد والأعياد لمشاركة الرهبان صلاة القداس ، وطلب المشورة ، والاستماع إلى خطب القديس ومواعظه ، والارتشاف من تعاليمه ، مما قوى روابط الاتصال بينه وبين شعبه^(٤). ومن ثم فإن أديرة شنودة كانت أديرة مفتوحة ، أما أديرة باخوميوس فكانت أديرة مغلقة قاصرة على الرهبان دون غيرهم.

ولم تجتذب أديرة الأنبا شنودة أفراد الشعب فحسب ، بل اجتذبت كثير من الرهبان والراهبات ، فيذكر الأنبا ويصا أنه كان تحت يده " ألفان ومائتين راهب ، وألف وثمانمائة راهبة ... سوى الصغار والمهتمين بهم "^(٥) ، وسرعان ما تزايدت أعداد هؤلاء الرهبان والراهبات بدليل ما يذكره المقرئى من أنه " كان تحت يده ستة آلاف راهب "^(٦) وأخذ الأنبا شنودة على عاتقه تهذيب هؤلاء الرهبان وتعليمهم وإرشادهم إلى الحياة الديرية الصحيحة. ولم يعتن الأنبا شنودة بالرهبان فحسب ، بل اعتنى كذلك بالراهبات ، فعندما تزايدت أعدادهن ابتنى لهن ديراً خاصاً بهن ، ووضع لهن نظاماً يتناسب مع طبيعتهن ، كأن يقمن بحياكة ثياب الرهبان ، على أن يمدنهم بما يحتجن إليه من

(١) سليم نسيم ، تاريخ التربية القبطية ، القاهرة ١٩٦٣ م. ، ص ٢٢٨.

(٢) عزيز سوربال عطية ، نشأة الرهبنة ، ص ١٧٧؛ وانظر أيضاً: رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٩٢.

(٣) انظر: أولبرى ، قديسو مصر ، الترجمة العربية ، ص ٤١٦.

(٤) رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٩٢.

(5) Vie de Schnoudi, P. 331.

(٦) المواعظ والاعتبار ، م ٢ ، ص ٥١١.

منتجات أديرة الرهبان ، وقد اختار لهن رئيسة تدير شئونهن ، ولم يكتف بذلك بل كتب العديد من الرسائل لهؤلاء الراهبات ، الغرض منها تعليمهن ، وإرشادهن ، وتثبيتهن على الإيمان القويم ، وتشجيعهن على ممارسة حياة البتولية (العذوبة) محاكياً بذلك القديس اثناسيوس ، الذى ألف رسالة تحت عنوان " التبتل العذرى " ذكر فيها العديد من النصائح والإرشادات لمن تريد أن تمارس حياة البتولية^(١).

شجع الأنبا شنودة رهبانه على ممارسة الرهبانية التوحيدية أى حياة العزلة والانقطاع للعبادة والعمل فى جوف الصحراء . إلى جانب ممارستهم للحياة الديرية الجماعية . فقد اعتاد منذ صباه الانقطاع فى البرية بمفرده للعبادة والتأمل والعمل كذلك ، واستمر يمارس هذا النوع من الرهبانية حتى بعد توليه رئاسة الدير الأبيض^(٢)، ولم يجروا أحد من رهبانه على الاقتراب منه أثناء عزلته ، بل أن تلميذه ويصا ، ونائبه فى الدير ، وكاتب سيرته ، كان يتردد كثيراً قبل أن يذهب إليه حينما يطرأ عذر قاهر ، لأن الأنبا شنودة كان ينهره قائلاً له: " ألم أقل لكم لا ترسلوا ولا تتعقبونى فى هذا الاسبوع"^(٣). ويذكر فى موقع آخر ، أن أمراً هام اقتضى استدعاء الأنبا شنودة إلى الدير ولكن "خشينا أن نمضي إليه لأنه أوصانا قائلاً: " لا تدعوا أحداً يدخل إليّ"^(٤). أى يذهب إليه فى البرية ويقطع عليه عزلته.

وكان الأنبا شنودة يسمح لرهبانه الذين حاكوه ومارسوا حياة العزلة والرهبانية التوحيدية فى البرية ، بأن يحضروا إلى الدير للحصول على احتياجاتهم من الطعام والشراب والملبس ، وكذلك لحضور اجتماعات الدير السنوية وعددها أربعة ، وذلك للتشاور فى أمور الدير ، فيذكر الأنبا ويصا أن المسئول عن مزرعة البقول فى الدير ، وأمين مخازنه ، كان يوزع منها على المتوحدين وغيرهم

(١) انظر: رشدى عازر، من أبطال البرية ، ص ٢٨ ، إيريس حبيب المصرى ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٤١ ؛ روف حبيب ، الرهينة، ص ١٧٨ ، هامش ١ ؛ كتاب دير الأنبا شنودة بسوهاج ، يوليو ١٩٩٨ م. ، ص ٣٦ ؛ تادرس يعقوب ملطى ، قاموس آباء الكنيسة وقديسيها ، القاهرة ٢٠٠١ م. ، ص ٤١٥ .

(٢) انظر ما سبق ، وانظر أيضاً:

Vie de Schnoudi, PP. 339, 410, 411, 417, 418, 419, 424, 425, 437.

(3) Vie de Schnoudi, P. 411.

(4) Vie de Schnoudi, P. 424.

من الرهبان، كما يذكر في موضع آخر أن الراهب ايساد . وكان خبيراً فى الفلاحة وماهر في غرس الأشجار والبقول . كان كريم اليد وبخاصة مع الأخوة المنفردين فى الكهوف والقاطنين فى المقابر والسواح الذين فى الصوامع ، وكان يحمل إليهم البقوليات وما يقع به من الفواكه ^(١).

وجمع رهبان الأنبا شنودة بذلك بين الرهبانية التوحيدية التى مارسها " أبو الرهبان " القديس أنطونيوس وبين الرهبانية الجماعية الديرانية التى مارسها الأنبا باخوميوس، إذ كان الأنبا شنودة من أشد المعجبين بنظام القديس أنطونيوس فيروى الأنبا ويصا أن جماعة من رهبان وادى هبيب الجبل المعروف بميزان القلوب ، تجادلوا مع أبى القديس وقالوا: أترى فى هذا الجبل أو فى الأجيال الماضية راهب يعادل أبونا أنطونيوس أو شبهه فى نسكه وفضائله وعبادته . فقال لهم أبى " لو جمعتم رهبان هذا العالم بأسره ... وجميع من يأتى بعد هؤلاء لا يعادلوا أنطونيوس الواحد مع الأخوة ^(٢). وهذه العبارات تتم عن تقدير عظيم للقديس أنطونيوس ونظامه الرهبانى مع الدعوة للسير على منواله فى ممارسة حياة الرهبانية التوحيدية ، التى يعد أنطونيوس رائدها ومؤسسها ومعلمها ^(٣).

واستحق الأنبا شنودة . من جراء ممارسته ورهبانه الحياة التوحيدية الانفرادية . أن يلقب بالأرشمندريت أى رئيس المتوحدين كما تتبأ له من قبل خاله بجول ، الذى يعد أول من لقبه بهذا اللقب عند لقائه الأول به وهو مازال صبياً صغيراً. ثم تلقب به رسمياً على يد البطريرك كيرلس بطريرك الإسكندرية أثناء انعقد المجمع المسكوني العالمى الثالث فى أفسوس عام ٤٣١م ^(٤).

ووضع الأنبا شنودة لأديرتة نظاماً ثابتاً للإدارة ، أسوة بما وضعه الأنبا باخوميوس ، فجعل لكل دير رئيس ، يشرف على أعضاء الدير وله السلطة المطلقة عليهم، ويقوم داخل الدير مع

(1) Vie de Schnoudi, PP. 450-451.

انظر أيضاً: رشدى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٢٩ ؛ إيريس حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ، ٤٤٢، ٤٤١.

(2) Vie de Schnoudi, PP. 372-373.

(٣) عن دور القديس أنطونيوس فى الحياة الرهبانية انظر: ليلى عبدالجواد إسماعيل ، " القديس أنطونيوس رائد نظام الرهبانية (٣٥٦-٢٥١ م) علم من أعلام بنى سويف " ، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر بنى سويف على مر العصور ، بكلية الآداب . جامعة القاهرة ، فرع بنى سويف ، عام ٢٠٠٢م ، ص ١٦٥، ١٢٨.

(٤) انظر ما سبق ، وانظر أيضاً: Vie de Schnoudi, P. 426-427.

الرهبان يعظّمهم ويعلمهم ويرشدهم ، وكان لكل رئيس نائب يساعده فى الإشراف على الأعمال اليومية العادية، التي يتطلبها الدير ، وكان الأتبا ويصا يلعب هذا الدور فى دير أستاذه ومعلمه الأتبا شنودة فكان يقوم بين يديه ، وينفذ أوامره ، ويساعده فى الإشراف على أعمال الدير ، ويحل محله فى غيابه عن الدير . كذلك جعل الأتبا شنودة وكيلاً للدير من الأخوة الرهبان المتقدمين فى السن ، والمشهود لهم بالتقوى والورع ، يقوم بتعهد أمور الرهبان ، ويسعى لقضاء حوائجهم ، ويعامل الكل سواء بسواء دون محاباة ، ويكون أميناً فيما سلم إليه، لذلك يطلق عليه كذلك " أمين الدير " . وكان لكل دير " خازن " يتعهد ما فى خزائن الدير من أطعمة ومعدات ، وهو المسئول عن ترتيب بيع الفائض من حاجات الدير ، وعمل الحسابات الخاصة بذلك ، ولا يستطيع أن يصرف شيئاً مما فى عهده إلا بأمر من أمين الدير . وبجانب ذلك كانت هناك إدارات خاصة بكل فرع من فروع العمل كالمطبخ ، والفرن ، والمخازن ، والمائدة ، والزرع ، وغيرها ؛ وكان على رأس كل منها أمين كذلك^(١).

وحدد الأتبا شنودة أوقات العبادة ، ونظم الصلوات للرهبان فجعلها أربع صلوات على النحو التالى:

١. صلاة قصيرة ترددها كل مجموعة من الرهبان قبل البدء فى العمل المنوط بها وعند الانتهاء منه.
- ٢ . صلوات انفرادية خاصة يؤديها الرهبان داخل قلاياتهم ، وتتضمن بعض المزامير والتسابيح ، ربما أنها خاصة فقد تركت الحرية لكل راهب فى ما يقول ويرتل وفي المواعيد التي يختارها.
- ٣ . صلوات جماعية يؤديها الرهبان فى كنيسة الدير ، أربع مرات يومياً فى الصباح ، وعند الظهر، وعند الغروب وبالليل، وكان الرهبان يهرعون جميعاً لحضورها فى صمت وهدوء.
- ٤ . صلاة القديس يوم الأحد وكما كان متبع فى الأديرة الباخومية . أن تكون خاصة بالرهبان وحدهم . ولكن فى أديرة شنودة ، كان يسمح لأفراد الشعب وسكان المناطق المجاورة بالمجئء إلى الدير مساء السبت من كل أسبوع لحضور صلوات المساء ، وتظل الكنيسة مفتوحة ومضاءة حتى انتهاء الصلاة فى اليوم التالى ، ثم يدعوهم الأتبا شنودة جميعاً إلى تناول الغداء على موائد

(١) ألفونسو يُسطس ، المقاومة الوطنية ، ص ١٤٠ ؛ رشدى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٢٦-٢٧ ؛ لوكاس الأتبا بيشوى ، سيرة وأقوال ، ص ٢٧ .

أعدّها لهم الرهبان خصيصاً ، وكانوا يخدمونهم بأنفسهم ساعة الأكل ، ثم يعظّم الأتبا شنودة ويرشدهم ، وينصرفون بعد ذلك إلى بلادهم^(١).

ونظّم الأتبا شنودة أوقات الطعام ، فكان يسمح للرهبان بوجبة واحدة فقط في اليوم ، وليس وجبتان كما في أديرة القديس باخوميوس ، يتناولها الراهب أما في المساء أو الغداة، وتقتصر على الخبز والخضر والبقول ، أما اللحوم والنبيد والبيض والجبن والأسماك فهي من الأطعمة الممنوعة في أديرة شنودة ، إلا أن المرضى والضعفاء كان يسمح لهم بتناول هذه الأطعمة الممنوعة ، فالرحالة بلاديوس يتحدث عن رجل يدعى أبو للونيوس التاجر كان يمضى إلى الإسكندرية لشراء احتياجات الأخوة المرضى من الرهبان ، وكان يمر يومياً على قلايات الرهبان في الأديرة من الفجر حتى الساعة الثالثة عصراً ليعطيهم طلباتهم ، وكان يحمل لهم الرومان والكعك والزيت والبيض وكل ما يحتاجون إليه^(٢). واهتم الأتبا شنودة بالأخوة الرهبان المرضى ، وحرص على زيارتهم باستمرار ، وكان يجلس إلى جوارهم ويواسيهم ، وقد أورد تلميذه الأتبا ويصا الكثير من الأمثلة ، التي توضح عنايته بهؤلاء الأخوة المرضى حتى يمتثلوا للشفاء^(٣).

وعنى الأتبا شنودة عناية فائقة بالعمل داخل الدير ، فجعله إجبارياً ، بل وشرطاً من شروط دخول الدير ، وسن القوانين بشأنه ومنها:

١. غير مسموح لمن يريد الدخول أو الانضمام إلى مجتمعنا في أى وقت ليصبح راهباً أن يقول: " أننى سأواصل فى هذا المكان العمل الذى بدأت فى بيتى وأكمّله هنا ما لم يصدر له أمر بذلك ."

٢- كذلك غير مسموح له بأن يقول : " إن العمل الذى من أجله جاء إلى هذا المكان هو دراسة الكتاب المقدس أو تعلم الكتب التى وضعت لنا ."

(١) Vie de Schnoudi, PP. 339, 432-33, 448, 452. ؛ إيريس حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ؛ ألفونسو يُسطس ، المقاومة الوطنية ، ص ١٤٢.١٤١.

(٢) انظر: Vie de Schnoudi, P. 415-16 ؛ وانظر أيضاً: القديسان بلاديوس وجيروم ، بستان القديسين ، جزءان ، ترجمة وتعليق: دياكون ميخائيل مكسى اسكندر ، القاهرة ١٩٩٩م ، ص ٣٨٤.٣٨٣ ؛ والترز ، الأديرة الأثرية ، الترجمة العربية ، ص ٣٠٦.

(٣) انظر: Vie de Schnoudi, PP. 412-415.

٣. إذا لم يرغب أحد في العمل في غير حرفته ، التي كان يمارسها في بيئته الأولى ، على أساس أن هذه الحرفة هي التي يتقنها فقط فقولوا له: " إذا كنت قد أتيت إلى هذا المكان لتعمل في حرفة معينة فقط ولا تعمل من أجل خلاص نفسك ، فأمامك المكان الذي أتيت منه ، عد إليه لتمارس حرفتك الأولى ."

٤. إذا كنت لا تريد أن تعمل أي عمل سوى ما تعلمته في موطنك، فمن ذا الذي يؤمن بأنك ستترك أعمالك جانباً، وستؤنك الدنيوية والجهل والفساد ، وسائر الأمور الشريرة لكي تنهذب وتنظر ، وتنقي نفسك ، وتعمل كل شيء حسناً وفق ما تؤمر به ، لأن كل من جاء إلى هذا المكان لا يجب أن يعمل حسب إرادته ، بل حسب إرادة الرب^(١).

وتتبع هذه القوانين من إدراك الأنبا شنودة لأهمية العمل ، فهو من ناحية يشغل فراغ الراهب ، ففي عرفه: " أن من يعمل يهاجمه شيطان واحد ، ومن لا يعمل تهاجمه شياطين عدة "^(٢). وبالتالي فالعمل يلهي الراهب عن التفكير في أمور الدنيا وشرورها ، ومن ناحية أخرى فإن العمل يوفر التغذية لرهبان الدير ، ومساعدة المحتاجين الذين يفدون إلى الدير ، وقد ضرب الأنبا ويصا العديد من الأمثلة الدالة على ذلك ، ومنها ما جاء على لسان القديس شنودة نفسه " ونحن في كل حين نعطي الفقراء والمساكين " ويذكر الأنبا ويصا في موضع آخر: " في كل سبت يأتي إلى أبي مساكين كثير يقربون من يديه الطاهرة ... فنقدم للجموع بمائدة فأكلوا جميعهم ... "^(٣).

أما عن الأعمال المهنية ، التي كان يؤديها الرهبان في أديرة القديس شنودة ، فهي عديدة ، وإن كان المقريري قد ذكر: " وكان (أي الأنبا شنودة) يتقوت هو وأياهم (أي رهبانه) من عمل الخوص "^(٤). ويتضح من عبارة المقريري هذه أن العمل في أديرة شنودة كان قاصراً على صناعة الخوص فحسب ، ويبدو أن ذلك كان في بداية الأمر ، لأن الأعمال داخل الدير ما لبثت أن تعددت

(١) انظر: رول ، موجز تاريخ القبط ، الترجمة العربية ، ص ١٥٥ ؛ وانظر أيضاً: الفونسو يُسطس ، المقاومة الوطنية ، ص ١٤٥.١٤٤ .

(٢) القديس العظيم الأنبا شنودة (كتاب الدير) ، ص ٢٧ .

(3) Vie de Schnoudi, PP. 321, 432-33, 449, 450-51.

(٤) المقريري ، المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

بتضاعف أعداد الرهبان ، ففي داخل الدير كانت تمارس أعمال النجارة والحداة والحياسة ، والطحن والعجن والخبز والطهي ، وصناعة الحصر والمقائف من سعف النخيل ، أما فى خارج الدير فهناك أعمال الزراعة من حرث ووزع وحصاد ودرس وتخزين ، ورعاية للماشية ، ورى البساتين وغير ذلك. أما المتعلمون من الرهبان فقد خصهم القديس بتعليم الرهبان الخط والقيام بنسخ الكتب المقدسة وتمويه حروفها بماء الذهب^(١).

وكان العمل يسير وفق نظام معين ، إذ يذكر الأتبا ويصا: " فلما كان وقت الشغل ، ضرب الناقوس ، ليذهب كل واحد إلى عمله إلى حين المساء"^(٢). ويتضح من هذه العبارات أن عمل الرهبان يبدأ من سماع الناقوس فى الصباح الذى كان بمثابة إشارة البدء فى العمل ، فيذهب كل منهم على أثر سماعه إلى العمل الذى يجيده ، ويستمر فى أداء عمله حتى المساء ، وذلك تحت إشراف القديس شنودة ويتوجيه منه ، بدليل ما يرويه الأتبا ويصا من إنه ذات مرة تغمغم الخبازون من أجل الرماد الذى يفرغونه من التناير فقال أبى: " التناير إحدى عشرة ، دعوا الوسطانى خاويا ولا تستعملونه ، واجعلوا خمسة من هذا الجانب وخمسة من الجانب الآخر ، وكل الرماد الذى يوجد فى العشرة اطرحوه فى الوسطانى منهم ... فصنعنا كما قال ..."^(٣).

وكان الأتبا شنودة يكره الكسالى ، ويمقتهم ويزجرهم بشدة ، فيذكر الأتبا ويصا أنه كان من بين الرهبان ، راهب كسلان متوان يدعى هرقل ، يمشي مع أخونه الرهبان وهو يضحك ... ويمزح ، فنهض أبى بغضب وأمسكه ، وطرحه على الأرض ، وقال له: " كف عن طغيانك"^(٤). وذلك ليكون عبرة لغيره من الكسالى ، الذين كانوا قلة بطبيعة الحال داخل الدير. فقد كان الدير الشنودى

(١) انظر: Vie de Schnoudi, pp. 335, 352, 408, 413, 449, 453 ؛ عن الأعمال المختلفة التى تمارس داخل الدير انظر: Vie de Schnoudi, pp. 352, 408, 413, 449, 453 ؛ وانظر أيضاً: رشدى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٢٥-٢٦؛ القديس العظيم الأتبا شنودة (كتاب الدير) ، ص ٢٧ ؛ سليمان نسيم ، تاريخ التربية ، ص ٢٣٢ ؛ ميخائيل مكسى ، المخطوط الأصيل ، ص ١٣.

(2) Vie de Schnoudi, PP. 448-449.

(3) Vie de Schnoudi, PP. 352-53.

(4) Vie de Schnoudi, PP. 413-414.

خالية نحل تعمل من الصباح حتى المساء ، وتسد جميع احتياجات الدير بل والمناطق المجاورة كذلك.

واهتم الأنبا شنودة بالتعليم داخل الدير قدر اهتمامه بالعمل بل أشد ، فعنى بتعليم رهبانه وبتقفيهم ، فلم يكن يسمح بقبول راهب إلا بعد أن يجيد القراءة والكتابة خلال فترة الاختبار ، وكان القديس شنودة يهدف من وراء ذلك إعانة رهبانه على قراءة الكتب المقدسة ، وكتب الصلوات ، وتاريخ الرسل والقديسين ، خاصة أنه كان يفرض عليهم أن يدرسوا الأسفار المقدسة دراسة تأملية عميقة ، وأن يحفظوا مزامير دواود النبي ، حتى تترنم بها ألسنتهم دائماً أثناء أداء الصلوات أو أثناء قيامهم بأعمالهم اليومية أو تناولهم الطعام^(١).

وحرص الأنبا شنودة معلم الرهبان الأول على أن يجمع رهبان ديره بين الفنية والفنية ، إلى مكان متسع بالدير ، ليلقى على مسامعهم الخطب والعظات^(٢). التي تدور حول التمسك بالفضائل المسيحية ، وتجنب مخالفتها ، والعمل على تقوية الروح ، حتى إذا ما تعرض الراهب لسهام الأعداء ، يستطيع أن يجاهد وينتصر^(٣). كذلك اهتم الأنبا شنودة بفن الكتابة ، فالحق بالدير الأبيض مدرستين يتعلم فيهما الموهوبون من الرهبان كيفية نقل الكتب ونسخها وزخرفتها ، فضلاً عن تعليم الخط^(٤). فأديرة الأنبا شنودة كانت أديرة علم ودراسة ، قائمة على التعمق في دراسة اللغة القبطية خاصة بلهجتها الصعيدية^(٥).

واحتوى دير الأنبا شنودة على مكتبة ، وإن كانت صغيرة ، لحفظ الكتب حتى يسهل على الرهبان الاطلاع عليها ودراستها والإفادة منها ، فيذكر أبو المكارم " كان القديس أبو شنودة قد عمل تابوت خشب ساسم مطعم بالعاج فيه ثلاث طبقات ، وكان القديس أبو شنودة عمله برسم الكتب

(١) Vie de Schnoudi, pp. 400-402, 420. ؛ وانظر أيضاً : رشدي عازر، من أبطال البرية ، ص ٢٣ ، إيريس

حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٣٨ ؛ القديس العظيم الأنبا شنودة ، كتاب الدير ، ص ٢٦ .

(٢) عن خطب الأنبا شنودة وعظاته ، انظر : Vie de Schnoudi, PP 291-95, 346-351, 377. ؛ وانظر

أيضاً: لوكاس الأنبا بيشوى ، سيرة وأقوال وعظات الأنبا شنودة ، ص ٧٣.٣٦ .

(٣) رشدي عازر ، من أبطال البرية ، ص ٢٣ .

(٤) إيريس حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٣٨ .

(٥) وعن فضل الأنبا شنودة على اللغة والأدب ، انظر ما يلي ، ص

"(١). وهذه المكتبة خصصت لها الحجرة التي تقع شمال الحنية الرئيسية في كنيسة الدير الأبيض ، التي بناها الأنبا شنودة ، فقد حفر على أحد جدرانها الأربعة أسماء عدد من الكتب ، بل وفي بعض الأحيان عدد نسخ كل منها(٢).

وكان الأنبا شنودة رجلاً صارماً ، شديد البأس ، بالغ العنف والقسوة على رهبان ديره ، يبث فيهم روح الخوف والرهبنة ، ليجبرهم على الطاعة ، حتى روى عنه قوله عن نفسه: " أنه بالخوف والرعب ، يستطيع أن يجبر الرهبان على محبة الله وطاعة أوامره "(٣). لذلك كان لا يتردد في أن ينزل . دون رحمة أو شفقة . أشد العقوبات وأعنفها بمن يحدث أقل خلل أو يحاول الخروج على نظام الدير ، فكان يضرب رهبانه بالعصى والسوط ضرباً شديداً ، وتساوى في ذلك لديه الرهبان والراهبات ، فقد وجه خطاباً إلى رئيسة دير الراهبات التابع له ، يحدد فيه عدد ضربات العصي ، التي تفرض على عشرة راهبات ارتكبن مخالفة(٤). ولم يقتصر العقاب على الضرب فحسب ، بل كان يصل إلى حد الطرد من الدير ، فيذكر الأنبا ويصا حدث أن أخطأ أحد الأخوة الرهبان فطرده أبي من الدير بمقتضى قوانينه ، فصار إلى البرية بكأبة عظيمة(٥). ولكنه ما لبث عن عفا عن هذا الراهب وأعادته إلى الدير ثانية بعد أن تعهد بالعمل وفقاً لقوانينه والميثاق ، الذي قطعه على نفسه أمام الله ، ويعلق ويصا على ذلك بقوله: " فتعجب الأخوة من رحمة أبي "(٦) لأن المعروف عنه العنف والقسوة والشدّة والشدّة والصرامة. وقد أرجع أوليري صاحب كتاب " قديسو مصر "(٧) استخدام الأنبا شنودة أسلوب الشدة والصرامة والعنف والقسوة إلى سببين هما:

(١) تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن ١٢ بالوجه القبلي ، ص ١١٠.

(٢) حسنى فكرى ، أخميم ، مدينة الشهداء في العصر القبطي ، سوهاج بدون تاريخ ، ص ٧٠.٦٩.

(٣) السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ٣٨ ، ٣٠٦.

(٤) أنظر: Vie de Schnoudi, PP. 413-14. ألفونسو يسطس ، المقاومة الوطنية ، ص ١٤١ ؛ مصطفى العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، إسكندرية ١٩٩٢ م ، ص ٣٤٥ ؛

Wilfered Griggs, Early Egyptian Christianity, New York, 1991, P. 198, Revillout, Sénuti le prophète, PP, 414-416.

(5) Vie de Schnoudi, PP. 406-407.

(6) Vie de Schnoudi, P. 408.

(٧) أوليري ، قديسو مصر حسب التقويم القبطي ، الترجمة العربية ، ص ٤١٨.٤١٧.

الأول: أن الرهبان الذين كانوا يلتحقون بالأديرة في زمانه (أى خلال القرن الخامس الميلادى) كانوا من الفلاحين البسطاء الأميين ، وفي رأى أوليرى أن جهلهم بالعلوم ، اقتضى تعليمهم وإدارتهم بالعصا ، فضلاً عن أنه شبه الأنبا شنودة بأحد كبار الاقطاعيين ، يدير مزرعة مستخدماً أسلوب العقاب التأديبى ، وإن عاب عليه البعض^(١) هذا التشبيه غير اللائق ، لأن طبيعة نظام الرهبانية تقتضى الانضباط والالتزام بدقة بالقواعد التى يسير عليها الدير مما يتطلب نوعاً من الحزم.

الثانى: إقدام الأديرة على قبول صغار السن فى الرهبانية ، خاصة الذين كان أهلهم يندرونهم ، لكى يتربوا بها منذ نعومة أظافرهم ، ليصيروا بعد ذلك رهباناً ، وقد أشاع هؤلاء نوعاً من الفوضى والجلبة فى الأديرة ، مما تطلب استخدام أسلوب العنف والشدة معهم حتى يلتزموا بالنظام الديرى. وقد أورد الأنبا وبصا رواية عن أحد هؤلاء الرهبان الصغار اسمه مخلص ، وقد أصابه الضجر والملل ، وعزم على مغادرة الدير والعودة مع أبيه إذا ماجاء لزيارته ، وعندما علم الأنبا شنودة بذلك عنفه ، فمرض الفتى مخلص ، فتضرع الأخوة الرهبان إليه أن يصلي من أجل أن يشفى مخلص من سقمه ، لأنه صغير دون البلوغ ، ولكنه لم يلب القديس دعوتهم ، فمات الفتى ولقي ربه^(٢).

ولكن إذا كان الأنبا شنودة قد سار على نهج التشدد والعنف فى بعض الأحيان تجاه رهبانه ، إلا أن سيرته التى سطرها تلميذه وبصا والتى أوردت نماذج لعنف الرجل وقسوته ، قد أوردت كذلك نماذج لرحمته ورفقه ورأفته برهبانه ، وصلاته من أجلهم طالباً من الله أن يرشدهم ويهديهم^(٣).

وهذا يعنى أن الأنبا شنودة لم يكن قاسياً ، غليظ القلب ، متشدداً على الدوام ، بل مست الرحمة والرأفة قلبه كثيراً حيال رهبانه ، فقسوته وغلظته وشدته كانت نابعة من حرصه على

(١) انظر: أوليرى ، قديسو مصر ، الترجمة العربية ، ص ٤١٧ .

(2) Vie de Schnoudi, PP. 431-432.

(٣) انظر: Vie de Schnoudi, PP. 336-327, 412-415, 454, 457.

التزام رهبانه بقواعد الدير ونظمه ، وهذا ما تحقق له فى نهاية المطاف إذ ارتفع مستوى رهبانه ، وأصبحوا قوة روحية جبارة فى صعيد مصر ، وأمسى نظامه نموذجاً يحتذى به ، مما جعله يقف فى مصاف مؤسس نظام الرهبانية ، وعلى رأسهم القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس ، ولا يقل عنهم شهرة وصيتاً فى صعيد مصر .

القديس شنودة ومحاربة الوثنية:

بعد أن اطمئن القديس شنودة على استقرار قواعد نظامه الديرى ، صرف جل اهتمامه نحو مقاومة العبادة الوثنية ومحاربتها ، إذ ظلت الوثنية تضرب بجذورها فى بعض أقاليم مصر . رغم انتشار المسيحية - ومنها إقليم طيبة الذى تقع أخميم - مسقط رأس القديس ، وأقرب المدن إلى الدير الأبيض معقل رهبانه - فى دائرته . فقد كان سكان تلك المدينة لحظة ترسيم شنودة راهباً فى عام ٣٤٢م من الإغريق (اليونانيين) الوثنيين ، وكانوا من الأغنياء ، وممن يمتلكون الثروة والأرض والجاه والسلطان والنفوذ والقوة والبأس ، مما مكنهم من الاحتفاظ بعقائدهم إلى أبعد الحدود ؛ فضلاً عن أنهم يتحدثون اليونانية لغة الثقافة الرفيعة فى ذلك الزمان^(١) .

حقيقة أن المسيحية كانت قد أخذت طريق الانتشار فى مصر وفى أرجاء الإمبراطورية البيزنطية ، وتحول أباطرها إلى الديانة المسيحية ، ولكن ظل بعض حكام الأقاليم Prasides على وثنيتهم ، وظنوا أنهم يستطيعون الاحتفاظ بمكانتهم ونفوذهم وسيطرتهم ، مثلما كان الحال عشية حكم الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١.٣٦٣م) الذى حاول إعادة الوثنية من جديد ، ولكن محاولته انتهت بالفشل ، ولم يقدر لها النجاح إذ توفى بعد عامين من اعتلائه العرش^(٢) .

(١) Revillout, Sénuti le prophète, P. 417. ؛ رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٨٤ ؛ سيد الناصرى " شنودة

مؤسس الكنيسة الوطنية " من أعمال ندوة الدور الوطنى للكنيسة المصرية ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ٤٢ .

(٢) عن جوليان المرتد انظر: أسد رستم ، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى ، ج ١ ، بيروت ١٩٥٨م ، ص

٢٣٨.٢٣٦ ؛ حسنين محمد ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، القاهرة ٢٠٠٠م ، ص ٣٨٣٤ .

وحاول القديس شنودة جاهداً أن يمحو من أذهان المصريين ، خاصة ساكنى إقليم طيبة وأخميم ، بقايا الديانة الوثنية وطقوسها ، التى علقت بأذهانهم ، فكرس جزءاً كبيراً من وقته لمقاومة هذه الديانة ، وبدأ أولاً بالوعظ والإرشاد والنصح ، ثم بالخطب الرنانة ، وكانت خطبه شديدة اللهجة حادة ، سخر فيها من الوثنيين ومعابدهم وألهتهم فى أسلوب بارع ولاذع فى ذات الوقت ، وفى إحدى هذه الخطب يصف معبداً من المعابد الوثنية ، وما عليه من بهاء وجمال ، ويريق يأخذ الأبصار والألباب ، ثم يتحدث عن الإله الذى أقيم هذا المعبد من أجله فيقول: "... عندما يأتى الكاهن ... ويزيح لك الستار كى تكتحل عينك برؤية هذا الإله ، حينئذ لا تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك ... فالإله إذا به قط أو تمساح أو حية أو ما شاكل ذلك من الحيوانات ... ثم يقول: يا للبور أن آله المصريين وحش يتمرغ على بساط الأرجون"^(١).

واستطاع القديس شنودة بهذه الخطب أن يجتذب إلى صفه جمهور عريض من التابعين ، فقد كان الرجل يعلم جيداً أن الخطيب مثله كمثل القائد عليه أن يستعد ويتأهب قبل أن يخوض المعركة ، كما كان يدرك تماماً أنه يقف أمام خصوم أشداء لهم رجالهم وأتباعهم ، الذين يقفون من ورائهم وعلى رأسهم الكهنة ، وهم رجال متقفون ، وبطبيعة الحال سوف يقابلون الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان ، وحماس القديس ورهبانه بحماس أشد ، وكذلك الاضطهاد بالاضطهاد^(٢). لذلك لم يكتف القديس بإثارة الجماهير ضد الوثنية والوثنيين وتحريضهم بالخطب فحسب ، بل راح يشن أعنف حملة ضد الوثنية شهدها إقليم طيبة ، فقاد الرهبان بنفسه من أجل تدمير معابدها وتحطيم أوثانها وأصنامها.

ويسجل الأنبا وبصا كاتب سيرة القديس عدداً من الهجمات العنيفة القاسية ، التى شنّها القديس على أماكن العبادة الوثنية فى كافة أنحاء أخميم ، وما جاورها من مدن ، ومن تلك الهجمات خروج القديس إلى " بنبوط وأخميم " لتحطيم ما بهما من أوثان وأصنام وبصحبته عدد من رهبانه ، وحاول أهل هذه المدن أن يبيطشوا به وبرهبانه ، ولكنه نجح فى هزيمتهم ، وهدم

(١) رعوف حبيب ، الرهينة ، ص ١٨٥ .

(2) Revillout, Sénuti, P. 418.

برايهم (أى هياكلهم)^(١)، ويذكر الأنبا ويصا أن الوثنيين فى هذه المدن اجتمعوا ، وذهبوا إلى والي انصنا - قرب ملوى . وقدموا شكوى فى القديس إلى الأمير المتولي من أجل معابدهم وأوثانهم ، التى أفسدها القديس شنودة ورهبانه ، فأرسل الأمير فى استدعائه ، وأوقفه عند مجلس الحكم . كما يروى ويصا - وخاطبه بصف وكبرياء أمام أهل أنصنا جميعاً ، غير أن القديس نجح فى الدفاع عن نفسه وعن صحة إيمانه ، وعاد إلى ديريه بسلام دون أن ينال منه الوثنيون^(٢).

استمر القديس فى حملته الشعواء على الوثنيين فيروى الأنبا ويصا في موقع آخر أن القديس ذهب ذات يوم ومعه أخوين هما مار يوشاب ومار أخنوخ إلى مدينة أخميم لينتزع الأوثان من بيت رجل يدعى " كاسيوس " فوصلوا المدينة ليلاً ، واتجهوا نحو بيت ذلك الرجل الوثنى ، واقتحموه ، وكسروا ما به من أوثان ، ورموها فى النهر ، ثم عادوا إلى الدير بسلام^(٣).

وتوج القديس حملته على الأوثان والأصنام بتدمير صنم ضخم كبير من النحاس ، كان منصوباً فى السوق بأخميم ، وكان أهل المدينة يتوجهون إليه ويصلون طالبين منه الشفاء ، ويتضرعون إليه من أجل قضاء الحاجات ، فما كان من القديس إلا أن توجه نحوه هو وجماعة من الرهبان ، بعد أن أحضر نجاراً ، وطلب منه أن ينقب له كعب هذا الصنم ، ففعل ، ثم حطم القديس الصنم ، وأشعل فيه النيران ، ودخل إلى باب البيعة (الكنيسة) يتبعه سائر أفراد الشعب ، حيث وعظهم وعظاً حسناً . كما يروى الأنبا ويصا . ونهاهم عن العودة إلى مثل ذلك ، ثم رجع

(١) Vie de Schnoudi, PP. 385-386. ؛ أما عن بنويوط أو بناويوط فاسمها القبطى pleuit ، والعربى بنويوط ، ووردت باسم Panauit كذلك. وهى من القرى القديمة التى تتبع مركز سوهاج. وعنها انظر: محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٢٥ ؛ وعن البرابى (أى هياكل أخميم) انظر: على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ١١٩.١١٦ .

(٢) Vie de Schnoudi, PP. 387-88. ؛ أما مدينة أنصنا فهى بالصعيد الأوسط ، قبالة الأشمونين ، وتسمى أيضاً أنتنوية ، لمزيد من التفاصيل انظر: على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ٣١١.٣٠٨ .

(3) Vie de Schnoudi, P. 425-26 ; Revillout, Sénuti, PP. 447-450

إلى الدير هو ورهبانه^(١).

وهكذا لم يهدأ للقديس شنودة بال ، ولم تلت له عزيمة ، ولم يكل له جهد ، حتى نجح في نهاية المطاف في محو الوثنية وأصنامها ، واقتلاعها من جذورها وجذوعها من صعيد مصر ، لذلك لا نعجب من أن المؤرخ الإنجليزي ورل Worrell قد وصفه " بأنه مؤسس المسيحية والكنيسة القبطية في مصر"^(٢). وعلينا أن نذكر في هذا الصدد الجهود التي بذلها كل من الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم (٣٧٩-٣٩٥م) وبطاركة الإسكندرية ثيوفيل (٣٨٥-٤١٢م) وكيرلس (٤٤٤-٤١٢م) الذين سعوا سعياً حثيثاً من أجل القضاء على الوثنية ، وكان القديس شنودة ساعدهم الأيمن في تحقيق هذا الهدف ، فقد أصدر إيفاك Euaque والى مصر من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس الأول مرسوماً في ١٥ يونيو عام ٣٩١م ، يمنع فيه الـ Magistrats من التردد على المعابد الوثنية أثناء توليهم مناصبهم وإلا كان عليهم أن يدفعوا غرامة تقدر بخمسة عشر صولداً ذهبياً^(٣).

وأصدر الإمبراطور ثيودوسيوس مرسوماً آخر في العام التالي ٣٩٢م ، حرم فيه تقديم القرابين للآلهة الوثنية ، وإحراق البخور أمامها ووضع الأكاليل ، وإراقة الخمر وسكب الزيت إكراماً لها وغيرها من شعائر الديانة الوثنية ، وذلك على مستوى الإمبراطورية ككل بما فيها مصر ، بل وأعلن الإمبراطور أن كل من يخالف هذه الأوامر يعتبر مذنباً ومجرماً ، وينبغي أن تنزل به عقوبة صارمة^(٤). هذا إلى جانب ما شهدته مصر في عصر الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) من قيام ثيوفيل بطريرك الإسكندرية بتدمير السرابيوم ومكتبته - وهما مركز الوثنية وحصنها المنيع في مصر . تدميرًا تاماً بمساعدة رهبان مصر ، علاوة على قيام بطاركتها بتعقب الفلاسفة الوثنيين ، وفي مقدمتهم الفيلسوفة هيباشيا ، التي لقيت مصرعها في عام ٤١٥م

(١) انظر: Vie de Schnoudi, PP. 439-446. ؛ وعن عظاته في هذا الصدد انظر:

Revillout, Sénuti, PP. 424-426.

(٢) ورل ، موجز تاريخ القبط ، الترجمة العربية ، ص ١٥٢.

(3) Revillout, Sénuti, P. 417.

(٤) السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٤٢.

، وكانت من مساندى والى مصر البيزنطى آنذاك ويدعى أورستس Orestes فى حملته من أجل التبشير بالوثنية^(١).

شئودة ونسطوريوس بطريك القسطنطينية:

كان نسطوريوس Nestorius من أبناء مدرسة أنطاكية ، إذ أكمل تعليمه بها ، بعد أن بدأه فى مرعش (جرمانىكا Germanici) مسقط رأسه ، ثم مارس حياة الرهبانية فى أحد الأديرة الواقعة فى ضواحي أنطاكية ، وترقى فى سلك الكنيسة فرسم شماساً فقساً ، وسمح له بتفسير الكتاب المقدس لما يتمتع به من البلاغة ولتفوقه فى اللغة والأسلوب ، وسرعان ما ذاعت شهرته ، وبلغ صيته مسامع الإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) ، فأحضره من أنطاكية ، وعينه بطرياً للقسطنطينية بعد وفاة البطريرك سيسينيوس Sisinnus فى إبريل من عام ٤٢٨م^(٢).

وذهب نسطوريوس إلى القول بأن السيدة مريم العذراء " والدة المسيح البشر Christotokos " ، وليست " والدة الإله Theotocos " واستند فى ذلك إلى أن هذا الاصطلاح الأخير لم يرد فى الأسفار المقدسة ، وأن الآباء لم يستعملوه فى نيقية ، فما جاء فى مجمع نيقية ٣٢٥م. هو " أن ابن الله تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء"^(٣). ورأى نسطوريوس فى ذلك اعترافاً بطبيعتين فى السيد المسيح هما: طبيعة ابن الله المساوى للأب فى الجوهر ، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء ، ومن ثم ففى رأيه أن اصطلاح " والدة الإله Theotocos " به خلط بين اللاهوت والناسوت ، ومن ثم أصر على أن السيدة مريم العذراء "

(١) انظر: السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٢٧٧.

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر: أسد رستم ، كنيسة مدينة الله أنطاكية ، ج ١ ، ص ٣٠٧ ؛ السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٦٣-٦٤ ؛ رأفت عبدالحميد و طارق منصور ، مصر فى العصر البيزنطى (٢٨٤-٦٤١م) القاهرة ٢٠٠١م. ، ص ١٥٣-١٥٢ وما يليها ؛ الأنبا غريغوريوس ، تاريخ الفكر الدينى المسيحى ما بين الإسكندرية وروما وبيزنطة ، ١٩٩٢م. ، ص ١٥ ؛ بتشر ، تاريخ الأمة ، ج ١ ، ص ٢٧ ؛ الأنبا إيسيدوروس ، الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٩١م. ، ص ٤٨٣.

(٣) انظر: أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، ج ١ ، ص ٣٠٩.

والدة المسيح البشر " وليست "والدة الإله"^(١). وطلب نسطوريوس إلى الناس فى إحدى مواظفه بأن يفرقوا بين " كلمة الله " وبين الهيكل الذى تحل به الآلهة ، وأن يتجنبوا القول بأن المسيح إنما ولدته مريم ، أما اتباع نسطوريوس فأنهم أنكروا لفظة " أم الإله " ، واعتبروا كل من يذكرها منتهرطقاً وملحداً^(٢).

وسرعان ما تسربت آراء نسطوريوس فى طبيعة السيد المسيح إلى مصر ، وكان يجلس على كرسى البطيركية فى ذلك الحين البطيريك كيرلس (٤١٢-٤٤٤م) فغضب غضباً شديداً ، لأنه كان يؤمن باتحاد الطبيعتين فى السيد المسيح ، مثل اتحاد الحديد والنار ، ومن ثم ففى رأيه أن المسيح أقنوم واحد وطبيعة واحدة متجسدة ، وأن العذراء مريم هى والدة الإله ، كما جرى على السنة الكثير من آباء الكنيسة. وراح البطيريك كيرلس بطيريك الإسكندرية يتصدى لآراء نسطوريوس بشتى الطرق ، فبدأ أولاً بأن أصدر فى يوم عيد القيامة من عام ٤٢٩م. منشوراً أسقفاً إلى الرهبان المصريين يندهم بما ينتظرهم من أخطار لو انتشرت آراء نسطوريوس وأفكاره^(٣). ثم وضع اثنى عشر بنداً تتضمن قانون الإيمان السكندرى المخالف تماماً لآراء نسطوريوس ، وقرن كل بند منها باللعة (الاناثيما Anathema) على كل من يقول بغير ما يقول به كيرلس حتى عرف هذا العمل بـ " الاناثيما الاثنى عشر "^(٤). وتبع ذلك بأصدر منشور

(١) أسد رستم ، كنيسة مدينة الله ، ج ١ ، ص ٣٠٩ ؛ وانظر أيضاً: حنانيا إلياس كساب ، مجموعة الشرع الكنسى ، بيروت - دمشق ١٩٧٥م. ، ص ٣٠٨-٣١٢ ؛ رأفت عبد الحميد و طارق منصور ، مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٥٤-١٥٨ ؛ الأنبا غريغوريوس ، تاريخ الفكر الدينى ، ص ١٦ ، بتشر ، تاريخ الأمة ، ج ١ ، ص ٢٨ ؛ رشى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٤١ .

(٢) السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٦٥ .

(٣) انظر: حنانيا إلياس كساب ، مجموعة الشرع ، ص ٣١١-٣١٢ ؛ السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٦٥ .

(٤) عنها انظر: حنانيا إلياس كساب ، مجموع الشرع الكنسى ، ص ٢٩٩-٣٠٠ ، ٣٠٧-٣٠٨ ، ٣١٢-٣٢١ ؛ رأفت عبد الحميد " الرهبانية المصرية والسلطة البيزنطية " بحث منشور ضمن أعمال ندوة الدور الوطنية للكنيسة المصرية عبر العصور ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ٩٢-٩٣ .

آخر يقول فيه " إنى لأعجب من وجود قوم يرتابون فى تلقيب العذراء " بوالدة الإله " لأنه إذا كان المسيح إلهاً ، فكيف يضمن على التى ولدته بلقب " أم الله " (١).

ولم يكتف كيرلس بذلك بل أرسل إلى نسطوريوس العديد من الرسائل ، ينصحه فيها بأن يعدل عن بدعته ومذهبه وآرائه فى السيد المسيح ووالدته ولكن دون جدوى ، لذلك رأى البطريرك كيرلس أن يستعين بالقديس شنودة الأخميمى لما يتصف به من غيرة شديدة على العقيدة ، وفصاحة وحجة قوية ، فضلاً عن ذلك فقد كان شنودة " زعيماً دينياً لكل منطقة الصعيد " كما وصفه أوليرى (٢). لذا أرسل إليه البطريرك كيرلس يدعوه هو والأنبا بقطر (فيكتور Victor) ارشمندريت طفنيس (تابنيس Tabennisi) للذهاب معه إلى القسطنطينية ليكشفوا أمر ذلك المفتضح نسطوريوس وينظرونه على حد تعبير الأنبا ويطصا. (٣)

وذهب الجميع إلى القسطنطينية فى محاولة للحد من انتشار مذهب نسطوريوس ، ولكن نسطوريوس أفلح فى أن ينشر مذهبه كتابة فى رسائله ومقالاته وخطبه ، والتف حوله الكثيرون من أهل القسطنطينية ، وعاد البطريرك كيرلس والقديس شنودة ومن معهما إلى مصر هذه المرة بخفي حنين. وما لبث الصراع أن اشتد بين كيرلس بطريرك الإسكندرية وبين نسطوريوس بطريرك القسطنطينية حول طبيعة السيد المسيح ، مما دفع الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى إلى الدعوة لعقد مجمع مسكونى عالمى لحسم الخلاف بينهما حول طبيعة السيد المسيح ، وتقرر أن

(١) انظر: القمص ميخائيل مينا ، علم اللاهوت ، ج ٣ ، منشور فى مجلة المحبة ، العددان ٤ ، ٥ لسنة ١٩٧٤م. ، ص ١١٧.

(٢) قديسو مصر ، الترجمة العربية ، ص ٤١٦.

(٣) انظر: Vie de Schnoudi, P. 324. ؛ أما مدينة طفنيس فهى ناحية جنوبى الأقصر ، ومعناها محلة الأشرار ، وهى ذاتها قرية نيابونيس مركز إسنا ، لمزيد من التفاصيل انظر: محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٥٦.

يتم عقد هذا المجمع فى مدينة أفسوس بآسيا الصغرى ، لذلك عرف هذا المجمع " بمجمع أفسوس " وهو المجمع المسكونى العالمى الثالث ٤٣١م^(١).

وحضر القديس شنودة الأخمىمى هذا الاجتماع بناء على دعوة موجهة له من الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى ، إذ يذكر الأنبا ويصا كاتب سيرته حرفياً: " ولما كان اجتماع الآباء فى مجمع أفسس ، ليقطعوا نسطوريوس ... تقدم عظماء البلاد ، وقالوا للملك أن فى صعيد مصر إنسان ... صالح يسمى أنبا شنودة ... وقد بلغوا صلواته وصيامه وسهره وأدبه ... لهذا أرسل يدعو صحبة أنبا كيرلس بطريرك الإسكندرية ليكشفوا حال نسطوريوس ويجادلونه"^(٢). ونظراً لأن البطريرك كيرلس كان يعتبر الرأس المفكر ، وكان شنودة يعتبر ذراعه القوية الطيبة ، لذلك فقد حرص البطريرك كيرلس على أن يصطحب معه عند ذهابه لحضور مجمع أفسوس القديس شنودة ، كما أصطحب معه عدد من أساقفة مصر ورهبانها لا يقل عن الخمسين راهباً ، مما يدل على مدى تمكن هؤلاء جميعاً من الدراسات اللاهوتية ، وامتلاكهم لناصرية الحجة فى الرد على نسطوريوس من ناحية^(٣). فضلاً عن أن البطريرك كيرلس قد اصطحب هذا العدد من أساقفة مصر ورهبانها ، تحسباً لوقوع أى حادث اعتداء على شخصه كبطريرك لكنيسة الإسكندرية من ناحية أخرى^(٤). وعندما وصل البطريرك كيرلس وصحبته رهبان مصر استقبلهم ممنون أسقف أفسوس استقبالاً دل على ما لهم من مكانة فى نفوس الجميع^(٥).

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذا المجمع انظر: حنانيا إلياس كساب ، مجموعة الشرع الكنسى ، ص ٢٨٨-٣٦٣ ؛ جون لوريير ، تاريخ الكنيسة ، ج ٣ ، الترجمة العربية ، ص ٢١٣-٢٢١ ؛ رأفت عبدالحميد وطارق منصور ، مصر ، ص ١٦٢-١٦٨ ؛ الأنبا غريغوريوس ، تاريخ الفكر ، ص ١٨-٢٥ ؛ القمص كيرلس الأنطونى ، عصر المجامع ، القاهرة ١٩٥٢م ، ص ١٢٥-١٥٤ ؛ القس حنا الخضرى ، تاريخ الفكر المسيحى ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٢٣٠-٢٥٢.

(2) Vie de Schnoudi, P. 426.

(٣) السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ١٠٧ ؛ شنودة ماهر ، الأدب القبطى ، ص ٥ ؛ سليمان نسيم ، تاريخ التربية القبطية ، ص ٢٣٦.

(٤) رأفت عبدالحميد ، الرهبانية المصرية ، ص ٩٣ ؛ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ٢١٨.

(٥) كيرلس الأنطونى ، عصر المجامع ، ص ١٤٢ ؛ بنشر ، تاريخ الأمة ، ج ١ ، ص ٣٠.

وقبل انعقاد المجمع ببضعة أيام طلب الآباء نسطوريوس لإقناعه بالعدول عن مذهبه ، وهنا يفصل الأنبا ويصا . كاتب سيرة القديس . الدور الذى لعبه شنودة ، فيذكر أنه بعد أن اجتمع أساقفة المجمع ، دخلوا البيعة (الكنيسة) ، ونصبوا كراسيهم ورتبوا كترتيب طقوسهم ، ثم وضعوا كرسي في وسط قاعة المجمع ، ووضعوا عليه الإنجيل المقدس ... ودخل نسطوريوس قاعة المجمع بكبرياء وصلف ... وحمل الإنجيل ووضع على الأرض ، وجلس على الكرسي ، ويتابع ويصا فيذكر: وعندما رأى أبى (أى شنودة) ما فعله نسطوريوس غار ، وحنق ، ووثب بغضب شديد ، وشق طريقه بين الآباء القديسين ، وأخذ الإنجيل من على الأرض ، وضرب ذلك المنافق نسطوريوس فى صدره وقال له: " أتريد أن تضع ابن الله على الأرض ، وتجلس أنت على الكرسي؟ " فرد نسطوريوس قائلاً لأبى: " ما شأنك أنت فيما بين هذا المجمع ، ولست قساً ولا أسقفاً ، بل أرشمندريت أى راهب ، فرد أبى عليه: " أن الله أتى بى إلى ها هنا لكى أبكتك على نفاقك وطغيانك ... " (١). ويرجع البعض موقف شنودة هذا إلى أن الرجل كان يعادى كل من هو بيزنطى ، وكان المنافس فى هذه الجولة هو نسطوريوس بطريرك القسطنطينية الممثلة للسلطة البيزنطية فى مصر (٢). ولكن علينا ألا ننسى أن هناك خلافاً حول طبيعة السيد المسيح بين بطريركية الإسكندرية ، التى يمثلها كيرلس وشنودة ورهبان مصر وبين بطريركية القسطنطينية ، ويمثلها نسطوريوس.

ولن نخوض هنا فيما حدث فى مجمع أفسوس ، ولكن الذى يهمنا أن البطريرك كيرلس خرج من هذا المجمع منتصراً ، إذ حقق ما كان يصبو إليه فقد حكم المجمع " بتجريد نسطوريوس من درجته الأسقفية وفصله من كل شركة كهنوتية " (٣). كما حكم بإرساله إلى أحد الأديرة ، وذكر الأنبا ويصا أنه نفى إلى كوم الشقف (بأخميم) إلى جوار الأنبا شنودة ، وذكر أيضاً أن نسطوريوس مرض مرض الموت ، وأرسل إلى أبى شنودة وقال له: " خذ مالى وتصدق

(1) Vie de Schnoudi, PP. 426-27.

(٢) عزيز سوريال عطية ، نشأة الرهبنة ، ص ١٧٧ .

(٣) انظر: حنانيا إلياس كساب ، مجموعة الشرح الكنسى ، ص ٣٢٢ ؛ رشدى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٤٢ .

به عني ، فقال له القديس: أن كنت أعتزفت بالمولود من العذراء " فإنك تظفر بما تريد ، فافتري نسطوريوس ، وحرمة أبي ..."(١). وأقام نسطوريوس بأخميم سبعة سنين ثم مات ودفن بها.

وأثبت المجمع كذلك أن في السيد المسيح أقنوماً واحداً وطبيعة واحدة بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ، لذلك فإن العذراء تدعى بحق " والدة الإله ". وهكذا خرج البطريرك كيرلس من مجمع أفسوس ٤٣١م محققاً كل ما كان يصبو إليه ، ومعلياً من مكانة بطريركية الإسكندرية ، التي بلغت في عهده درجة كبيرة من القوة ، جعلت أساقفتها يستحقون لقب " الفراعنة "(٢). وذلك بفضل وقوف رهبان مصر وعلى رأسهم القديس شنودة وقفة رجل واحد إلى جوار البطريرك كيرلس ومساندته ودعمه في كل المواقف.

دور القديس شنودة الاجتماعي:

لعب القديس شنودة وأبناء ديره دوراً هاماً في مجتمع مصر في العصر البيزنطي ، فرغم ما عرف عن الرجل من شدة وصرامة وعنف وقسوة مع رهبانه ومع غيرهم ، فقد قربت المسافة جداً بينه وبين بني قومه ، خاصة في أوقات الشدائد والأزمات والكوارث والمجاعات ، كان الرجل حبيب إلى قلوب المصريين خاصة من أبناء الصعيد ، فكثيراً ما كانوا يلتجأون إليه ، يلتمسون منه تخفيف آلامهم بصلواته وصلوات رهبانه ، وبارشادهم وتوجيههم وتعزياتهم ، حينما تحل بأحدهم نائبة أو تنزل به كارثة ، فيذهب إلى القديس في ديره - الذي فتحت أبوابه على

(١) Vie de Schnoudi, P. 428. ؛ ولمزيد من التفاصيل عن المصير الذي انتهى إليه نسطوريوس انظر: بتشر ، تاريخ الأمة ، ج ١ ، ص ٣٥-٣٣ ؛ السيد الباز العريني ، مصر البيزنطية ، ص ٣٧ ، هامش ١ ؛ وانظر أيضاً: على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ١٢٢.

(٢) السيد الباز العريني ، مصر البيزنطية ، ص ٦٧.

مصارعها أمام الجميع فى أيام الآحاد والأعياد - فيجد عنده المن والسلوى ، ويعود إلى داره راضياً مرضياً.

وحفلت سيرة القديس . التى كتبها تلميذه الأنبا ويصا . بالعديد من الأمثلة سوف نسوق بعضها للدلالة على قربه من أفراد شعبه فى وقت الشدائد من ذلك ما يرويه الأنبا ويصا من أن رجلاً من أهل قرية من قرى الصعيد تسمى سمهود^(١) . نواحي مدينة أبصاى . جاءه يوماً وهو متألم القلب ، وطلب من القديس أن يصلى من أجله ، حتى يغفر الله له خطايا وذنوبه الكثيرة ، التى ثقلت عليه وأرقت مضاجعه ، فما كان من القديس إلا أن صلى من أجله ، وأخذ عليه عهداً بالاعتراف بجميع أخطائه والإقلاع عنها ، وأرشده إلى طريق الهدى والصلاح^(٢) . ويذكر ويصا في موضع آخر أن رجلاً من أغنياء مدينة أخميم، حضر ذات يوم إلى القديس ، وأخبره بأن اللصوص قد سرقوا كل محتويات بيته ، فسعى القديس للبحث معه عن اللصوص ، ورد عليه ماله وما سرق منه^(٣) .

وقام القديس كذلك بمساعدة الفقراء والمساكين ، وحثهم على العمل والسعى من أجل الرزق ، وأرشدهم إلى أبوابه ، فيروى الأنبا ويصا أنه أتى يوماً إلى القديس رجل مسكين يدعى (لوقا) كان يقيم قابلة أخميم ، وأخبر القديس أنه يكد الليل والنهار ، ولا يستطيع أن يوفر الوقت الضرورى لعياله إلا بعد جهد شديد ، وطلب من القديس أن يرشده إلى صناعة يعيش منها هو وأطفاله ، فما كان من القديس إلا أن أحضر كمية من الحبوب والبذور وقدمها للرجل ، وقال له: " ازرعها فى أى مكان من الحقل وأحسن زراعتها ... وكن متحققاً أن لى فيها نصيب " . وأخذ لوقا الحبوب ، وقام بزرعتها حتى نمت وأثمرت ، فحمل لوقا جزءاً منها إلى الدير ، وسرعان ما

(١) سمهود اسمها القبطى Semhout ، وحرفت عربياً إلى سمهود وهى قرية كبيرة على شاطئى غربى النيل بالصعيد الأعلى بمصر ، وهى تتبع مركز نجع حمادى الآن ؛ انظر: محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ١٩٧ .

(2) Vie de Schnoudi, PP. 322-24

(٣) لمزيد من التفاصيل انظر: Vie de Schnoudi, PP. 358-3-59

باع واشترى واستفاد من ثمرتها خيرات كثيرة^(١). وبذلك دل القديس الرجل على باب من أبواب الرزق ، عاد عليه وعلى أفراد أسرته ومجتمعه بالنفع والخير العميم ، وذلك بدلاً من أن يتصدق عليه بمبلغ من المال سرعان ما ينفقه ، عملاً بالمثل الصيني القائل: " بدلاً من أن تعطيه سمكة ، علمه الصيد " .

وساهم القديس كذلك فى سداد ديون المدينين والمقترضين فيروى الأنا ويصا فيقول: جاء إلى أبى يوماً شخص مدين بمبلغ من المال يقدر بمائة وأربعين ديناراً ، عجز عن سداه فى موعده ، فما كان من الدائن إلا أن أخذ ابنه ، وعزم على إرسالهما إلى كورته إذا لم يسدد الدين ، فهرع الرجل إلى الأنا شنودة طالباً عوناً ومساعدته ، فما كان من القديس إلا أن أعطاه مبلغ الدين ، عندئذ أطلق الدائن سراح ابنه^(٢). ويسجل الأنا ويصا فى موضع آخر إنه كان فى مدينة أخميم أرخون له قرض على إنسان ، فعجز عن سداه ، فاعتقله وسجنه وعذبه ، وطلب منه الغرامة ، فأرسل الرجل رسالة إلى الأنا شنودة عن طريق أحد الخدام الذين يعملون فى خدمة المساجين ، مستنجداً به راجياً أن يتوسط له عند الأرخون حتى يعفو عنه ويطلق سراحه ، فاستجاب القديس له ، وأرسل إلى الأرخون رسالة يقول له فيها: " أطلق سبيل هذا الرجل ليغفر لك الرب يوم شدتك " ، فاستجاب الأرخون لأمر القديس ، وأطلق سراح الرجل^(٣).

وقف القديس كذلك إلى جوار شعبه فى أوقات الأزمات والأوبئة والمجاعات ، التى كانت تنتاب البلاد ، خاصة عندما ينخفض النيل ، وتندر المحاصيل ، وبعض الجوع بأنبياه عليهم ، عندئذ يهرع الجميع إلى دير الأنا شنودة ، فيجدون الطعام والشراب فيذكر الأنا ويصا أنه حدث فى بعض السنين غلاء وقحط ، فهرع أهل أخميم وأبصاى إلى دير الأنا شنودة طالبين الخبز والطعام ، فما كان من القديس إلا أن قال لى: " امض مع هذا الأخ ، واجمعا الخبز ، وفرقوه على الناس ، ففعلنا كما أمرنا ... وذهبنا إلى مخزن الخبز وإذا به قد امتلأ ... فأكل الجميع

(1) Vie de Schnoudi, PP. 432-35.

(2) Vie de Schnoudi, PP. 446-447.

(3) Vie de Schnoudi, PP. 382-83.

وشبوعوا ، لذلك أطلق على المكان " كنز البركة " ^(١). ولم يكتف القديس بذلك بل كان يعتزل الدير في السنوات التي يقل فيها النيل - ويخرج إلى البرية يصلى ويتضرع إلى الله العلى القدير ، ويدعوه أن يكشف الغمة ويغيث الأمة ، كذلك كان يدعو رهبانه إلى الصلاة من أجل ذلك قائلاً لهم: " صلوا إلى الله يا أولادى من أجل أن يرتفع النيل ، ويعم الرخاء البلاد " ^(٢). وسجل ويصا كذلك أنه فى سنة من السنوات كثرت الأمراض والأوبئة ، فأمر القديس بفتح أبواب الدير أمام الناس ، حتى يجدوا حاجتهم من العلاج والدواء فضلاً عن الطعام والشراب ^(٣).

امتدت خدمات القديس ومساعدته لكل من حوله سواء فى الأقاليم القريبة من الدير أو المحيطة به ، فقد حدث . كما يروى كاتب سيرته ^(٤) . أن أغار البجاة (وهم قبائل البلبيين Bel mmyes النوبية) على النواحي البحرية ، ونهبوا مدينة أبصاي ، وسبوا أهلها ، وعندما سمع الأنبا شنودة بذلك ، راح أولاً يخطب فى رهبانه ، ليحثهم على بذل أقصى ما وسعهم من جهد ، من أجل إنقاذ اخوتهم ومواطنيهم ، ومن أقواله لهم: " ألم تروا ما فعل البرابرة بالجماعات الرهبانية القريبة منا؟ أن التخريب والتدمير الذى أحدثوه ... يكفى لتحريك قلوب الحكماء إذا عرفوا ما حدث للذين غرقوا فى النهر أو الذين قتلوا فى الجبال ، أو فى الأديرة أو الذين استسلموا للأسر والعبودية ، علاوة على إشعال النيران فى بعض الكنائس ونهب البعض الآخر ... " ^(٥).

ولم يكتف القديس بهذا الخطاب الحماسى ، بل نزل إلى ميدان المعركة ، وقابل رؤساء القبائل المغيرة وقال لهم: " أوهبوني هؤلاء الذين اسرتموهم ، وخذوا الكسب الغنائم " ويذكر الأنبا ويصا أنهم وهبوه له ومضوا ... ^(٦). وعاد الأنبا شنودة بهم إلى الدير ، وكان عددهم ألف رجل

(1) Vie de Schnoudi, PP. 351-352.

(2) Vie de Schnoudi, PP. 410-11; 424, 458-59.

(3) Vie de Schnoudi, P. 409.

(4) Vie de Schnoudi, PP. 396-99.

(٥) نقلاً عن ألفونسو يُسطس ، المقاومة الوطنية ، ص ١٤٨.

(6) Vie de Schnoudi, PP. 396-97.

سوى النساء والصبيان ؛ وطلب من اخوته الرهبان في الدير أن يخدمونهم ، واستأجر لهم سبعة من الأطباء لعلاج أسقامهم ، وجراحين لمداواة جروحهم ، خاصة من تعرض منهم للنشاب (السهام)^(١).

وأقام هؤلاء الأسرى في الدير ثلاثة أشهر ، مات خلالها منهم ما يقرب من أربعة وتسعين نفساً ، دفنوا في الدير ، وولد فيهم اثنان وخمسون نفراً ، وبلغت جملة ما انفق عليهم خمسة وعشرين ألف درهم على طعامهم ، الذي اشتمل على بقولات وتوابل ، وزيت ، وعدس ، وخبز ، فضلاً عما احتاجوه من أحذية وملابس ، وأكفان ، وما يحتاجه المرضى من خبز وشعير وخل وخمر وبيض وجبن وطير حمام وزبيب وعنب وفاكهة وغيرها كما يذكر الأنبا ويصا ، الذي أحصى كذلك كميات القمح التي استهلكوها بثمانية آلاف وخمسمائة أردب قمح وأكثر ، أما مقدار الزيت فكان مائتين قنطار ، سوى الخضار والفجل مما لا أستطيع أن أوصفه على حد تعبير الأنبا ويصا^(٢). ويتضح من ذلك الجهد الكبير الذي بذله القديس ورهبان ديره في خدمة بني جلده ، فقد سخر كل ما لديه من إمكانيات وطاقات وقدرات من أجل مساعدة قومه وقت الشدة.

وعاد الأسرى إلى بلادهم بعد مضي الشهور الثلاثة معززين مكرمين ، يحملون معهم ما يحتاجون إليه - في سفرهم - من طعام وشراب ، ولم يسعهم إلا أن يلهجوا بالشكر والعرفان للقديس ورهبان ديره ، على ما بذلوه من جهد طيلة هذه الشهور ، من أجل أن يوفروا حاجتهم من طعام وشراب وملبس وعلاج ودواء وغير ذلك ؛ فقد ضرب القديس ورهبان ديره رقماً قياسيًّا في الصبر والمثابرة من أجل خدمة ذلك العدد الكبير من الأسرى دون تزمير أو استياء ، وذلك بفضل إدارة القديس الحازمة للدير^(٣).

(1) Vie de Schnoudi, P. 397.

(2) Vie de Schnoudi, PP. 398-99.

(٣) Vie de Schnoudi, P. 399. ؛ وانظر أيضاً: عزيز سوريال عطية ، الكنيسة القبطية ، ص ٧ ؛ إپريس حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٤١.

وحارب القديس شنودة بعض العادات السيئة ، التي سادت مجتمع مصر فى تلك الأونة ومنها: التمسح بالأجداث والقبور ، وإنشاء الهياكل على جثث الشهداء ، فقد نقشت فى مصر ظاهرة عبادة القديسين والشهداء لدرجة أن الكنيسة فى عصرها الأول ، كانت تبحث عن رفات هؤلاء القديسين وذخائرهم ، وتضعها فى كل كنيسة تبني حديثاً^(١). فممنع القديس شنودة إنشاء الهياكل على جثث القديسين وندد بها فى خطبه مستنداً فى ذلك على " أنه ليس هناك . كما يقول . فى الأناجيل إشارة تدعونا إلى بناء الهياكل حتى فوق الرفات الحقيقية للشهداء أو الرسل ، كما أن آباءنا الذين رقدوا فى أيامنا ، كما أعلم وأشهد ، يوصوننا بالألا ندع إنساناً يبحث عن أجسادهم " ^(٢).

وعالج القديس كذلك ظاهرة العبث والاستهتار ، التى نقشت بين بعض المسيحيين فى عصره ، أثناء احتفالهم بموالد الشهداء ، وذلك عن طريق العظات ، وله عظة حاول بها إقناع بني قومه بضرورة الإقلاع عن مثل هذه الظاهرة ، وقد جاء فيها: " جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى أماكن الشهداء والقديسين ليصلى فيها ، ويتلو المزامير ، ويظهر نفسه ... أما من يذهب ليتسلى ، ويأكل ، ويشرب ، ويلهو ... فذلك هو الكفر بعينه " ثم يصف ما يحدث أثناء تلك الموالد بقوله: " بينما يقف البعض داخل الكنيسة، يصلون ويرتلون المزامير ... إذ بالآخرين فى الخارج يملأون المكان جلبية وصياح ، ويحولونه إلى سوق لبيع العسل والحلى وما أشبه ، ومكان لعرض بهائمهم وسباق خيولهم ، ولسرقة ما يعرض من بضائع ... كل هذا يحدث فى موالد الشهداء والقديسين ... يا للغباء هل تتركون بيوتكم ومدنكم وقراكم ، وتتعبون فى السفر إلى أماكن الشهداء ، لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتشترىوا وتقلعوا ما يروق لكم! ... " كذلك استشهد القديس فى عظته هذه بقول السيد المسيح . علي السلام . لليهود حينما دخل هيكل سيدنا سليمان ووجدهم يبيعون ويشترىون وهو: " بيتى بيت الصلاة يدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص " ^(٣).

(١) بتشر ، تاريخ الأمة القبطية ، ص ١٦ .

(٢) رشدى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٤٠ ؛ مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة العالمية ، ص ١٨ .

(٣) عن نص هذه العظة انظر: رشدى عازر ، من أبطال البرية ، ص ٣٩-٤٠ ؛ رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص

١٨٥ . ٨٦ ؛ لوكاس الأنبا بيشوى ، سير وأقوال وعظات ، ص ٧٠ .

وبذلك نجح القديس فى التصدى لما يفعله بنو قومه ، من تصرفات لا تليق بهيبة القديسين والشهداء أثناء الاحتفال بموالدهم ، وكان لعظته أكبر الأثر فى الإقلاع عنها فى عصره.

وحارب القديس شنودة كذلك السحر والشعوذة والدجل الطبى ، لأنه كان يؤمن تماماً بأن السحر والشعوذة وغيرها ، تتنافى تماماً مع المبادئ التى تنادى بها المسيحية ، لذلك حاربها بكل ما أوتى من قوة ، وتصدى لأصحابها ، خاصة بعد أن حاول بعض الوثنيين فى بنيوط - من نواحي أخميم - فى أن يستخدموا معه السحر ذات مرة ، حتى يغيروا مسلكه ولا يمكنوه من هدم أوثانهم وتحطيمها ، ولكنهم . كما ذكر كاتب سيرته . تمكن من معرفة الموضوع ، الذى أخفوا فيه كتب سحرهم واستخرجها ، عندئذ اختفى أصحابها من أمامه بعد أن أيقنوا اكتشافه لها خوفاً من بطشه بهم^(١).

وهكذا لعب القديس شنودة دوره كمصلح اجتماعى ، يقف إلى جوار شعبه فى أوقات الشدائد والأزمات والملمات ، ويطهر مجتمعه من العادات السيئة ، ويهديه إلى الطريق القويم بفضل خطبه وعظاته التى كان لها فعل السحر على بنى جلدته.

دور القديس شنودة السياسى والوطنى فى تاريخ مصر :

اتسمت الفترة التى عاشها القديس شنودة ، وهى قرابة قرن من الزمان من منتصف القرن الرابع الميلادى وحتى منتصف القرن الخامس الميلادى بعدم الاستقرار السياسى ، فقد تولى حكم مصر خلالها ما يقرب أربعة وأربعين والياً من قبل الحكومة البيزنطية فى القسطنطينية ، منهم من قضى شهوراً فى الحكم ، مما يظهر عدم الاستقرار والفوضى ، فضلاً عن التدهور وتفشى روح القلق ، وعانى المصريون خلال تلك الفترة من ظلم الحكام البيزنطيين وتعسفهم من ناحية ، ومن قسوة كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة الأرستقراطية من ناحية أخرى. فإذا كان الحكام البيزنطيون هم المستفيد الأول من خيرات هذا البلد ، فإن كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة

(1) Vie de Schnoudi, PP. 385-386.

وقد أورد وول (Worrell) أمثلة لبعض التعاويذ السحرية ، انظر: موجز تاريخ القبط ، الترجمة العربية ، ص ١٥٤، ١٥٣.

الأرستقراطية وامتولى المناصب الكبرى فيها كانوا عونهم فى ذلك ، فكلهما أصحاب نفوذ وسلطان وثروة وجاه ، عاشوا بعيداً عن جموع الشعب ، يرفلون فى حياة تطفح بروح الترف والبذخ والنعيم ، يعيشون فى قصور تعج بالخدم والحشم ، يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية. أما غالبية أفراد الشعب فتكدح ليل نهار من أجل إرضاء هؤلاء السادة ، وتبذل كل الجهد فى سبيل الحصول على ما يكاد يسد الرمق ، ويستتر البدن ، مثقلة الكاهل بالعديد من الضرائب ، فضلاً عما تتعرض له من قسوة جامعيها^(١).

كانت الصلة وثيقة بين القديس وأفراد شعبه ، الذين داوموا على التردد عليه فى ديره ، والثقة به والاطمئنان إليه ، لذلك كشفوا له عن جراهم ، وما يعانوه على يد الحكام البيزنطيين وكبار الإقطاعيين من ظلم وجور وتعسف ، فأحس الرجل بكل أحاسيسهم ، وشاركهم وجدانهم لأنه واحد منهم ، اختلجت نفسه المشاعر عينها التى اختلجت بها نفوسهم ، فصمم على أن يكرس حياته لتحريرهم من نير سادتهم البيزنطيين والإقطاعيين ، كما حررهم من الوثنية ومن العادات السيئة التى سيطرت على حياتهم ، وراح أولاً يندد بمساوئ هؤلاء الحكام مستغلاً قدرته على الكتابة والخطابة فى الكشف عن مفسدهم ، وذلك لإثارة شعبه ضدهم وفى ذلك يقول: " ... لقد امتلأت قلوبهم إثماً وطمعاً وشرها ... إذ أصبح كل من اعتلى الحكم لا هم له إلى اكتناز الفضة ، والويل لمن يكون الضحية ... وحتى جنودهم يضجون بالشكوى لحرمانهم من رواتبهم ... فيسعى هؤلاء لالتماس ذلك ... فيسطون على المدن والقرى والمنازل والأكواخ والسفن ... والأديرة نفسها ... وإذا حاول أحد اعتراضهم كان جزاءه الموت بحد السيف على أيديهم ... " ^(٢).

وحرص القديس على التنديد بالحكام فى كل مناسبة فوصفهم قائلاً: " سلاطين تلك الأيام يجمعون أموالاً كثيرة ظلماً ، وقد ينسون الطلبات والصلوات ، ويرفضون بيعتى لأجل ما عليهم

(١) انظر: مجدى سلامة ، الأنبا شنودة ، ص ٢٠ ؛ إيريس حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٣٩ ؛ رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر: رعوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٨٢ . ١٨٣ ؛ الفونسو يُسطس ، المقاومة ، ص ١٥٣ .

من الجور ... الويل لكل الرؤساء ومقدمى الشعوب فى كل المدن وجميع القرى...^(١). ثم يعرض القديس صورة من حياة هؤلاء وأخرى من حياة غالبية أفراد شعبه فيذكر: "...يذهب هؤلاء للصيد والقنص فى الجبال ، يطاردون فرائسهم من شتى الأنواع ، بينما يتركون فى قواربهم بعض هؤلاء التعساء لحراستها ، ويكلفون البعض الآخر بأن يجروا أمامهم لمطاردة الثعالب والعنزة البرية وغيرها ..."^(٢). ثم يذكر فى موضع آخر : " ... من ذا الذى يستطيع أن يسرد المظالم التى راح ضحيتها هؤلاء الفقراء ؟ إننى أعرف أشخاصاً لم يجدوا طعاماً ليأكلوا هم وحيواناتهم ، فذهبوا بها إلى المخابز لبيعها لينفقوا من أثمانها ..."^(٣). وتوضح هذه الصورة التى رسمها القديس بقلمه ولسانه جانباً من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة التى عانى منها المصريون فى ظل السيطرة البيزنطية.

ولم تقتصر جهود القديس على مجرد التنديد بالحكام وإبراز مفسدهم، بل بصر القديس مواطنيه بحقوقهم ، ودفعهم إلى المطالبة بها حتى ولو كان الخصوم من كبار الحكام، وأيقظ فيهم الشعور بأن من حقهم الشكوى من الظلم وألا يرضوا بغير العدل ، خاصة أن يد الفساد كانت قد امتدت إلى القضاء نفسه ، فسيطرت عليه الرشوة إلى حد صار معه حكم العدل والظلم متروكاً للمصادفات وحدها ، بسبب محاباة موظفى القضاء لبنى جنسهم من الحكام والملوك الأجانب على حساب الوطنيين^(٤). لذا كان القديس يذهب بنفسه مع المظلومين من المصريين إلى ساحات القضاء، ويدافع عن حقوقهم أمام محاكم الأقاليم ، فإذا لم ينجح فى إقرار العدل ، ولم يجد إنصافاً من الحكام أما لأنهم طرف فى القضية ، أو بسبب محاباتهم لكبار الملوك والأغنياء ، فإن القديس كان يستأنف القضية أمام محكمة الإمبراطور فى القسطنطينية ذاتها ،

(1) Vie de Schnoudi, P. 344.

(٢) رعوف حبيب ، الرهينة ، ص ١٨٣ ، الفونسو يُسطس ، المقاومة ، ص ١٥٤ .

(٣) رعوف حبيب ، الرهينة ، ص ١٨٣ .

(٤) رعوف حبيب ، الرهينة ، ص ١٨٩ .

إذ كان من حق المصريين استئناف قضاياهم أمام محكمة الإمبراطور بمقتضى ما عرف باسم الالتماس ، ولا يهدأ له بال حتى ينال المظلوم حقه^(١).

واستخدم القديس فى بعض الأحيان سلاح القوة فى رفع الظلم والجور عن بنى جلدته . فيروي الأنبا ويصا . أنه كان على الشاطئ الغربى جزيرة تدعى (جزيرة الريح) . من أعمال أحميم . أصحابها قوم لهم جاه ، ومزارع كروم ، ولديهم مستخدمين مسيحيين ، غدروا بهم ، ولم يدفعوا لهم شيئاً من أجورهم ، بدعوى أن كرومهم فسدت ولم ينتج خمراً ، وأنهم خسروا بذلك خسارة فادحة ، فشكى هؤلاء حالهم إلى القديس شنودة ، وقالوا له: " لنا عدة سنين ونحن نقاسى هذا الجور الشديد " . فما كان من القديس إلا أن حشد جيشاً من رهبانه فى الحال ، وسار ضد هؤلاء الذين اجحفوا بحق المسيحيين ، فأتلف أمتعتهم ، وهدم منازلهم ، ورد الحق لأصحابه^(٢).

وبهذه القدوة علم المصريون أن لا يرضوا بالظلم ولا يستكينوا له ، كما علمهم الشجاعة فى المطالبة بحقوقهم وبالعدل والإنصاف ، وملاً قلوبهم ثقة بأنفسهم. لذا لا عجب أن اكتسب القديس شهرة عظيمة وشعبية كبيرة ليس على المستوى المحلى فحسب ، بل وعلى المستوى الإمبراطورى كذلك. إذ لم يكن حكام البلاد كلهم خصوم له وللمصريين ، بل منهم من كان حلفاء له ، وتعاونوا معه من أجل صالح البلاد وخيرها ، وليس أدل على ذلك من الصلات القوية ، التي ربطت بينه وبين عدد من رجالات الدولة وقادة الجيش ، الذين كثيراً ما كانوا يقصدونه للمشورة والتبرك ، وطلب الصلوات والوعون ، بل لقد حرص بعض القادة على نيل بركته ، قبل انطلاقهم إلى ميادين القتال ، خاصة ضد القبائل البدوية ، التي كانت تغزو تخوم مصر الجنوبية^(٣). وقد سجل الأنبا ويصا ذلك بقوله: " وكان كثير من أراخنة أحميم ، وأرباب الدولة قد

(١) رءوف حبيب ، الرهينة ، ص ١٨٣ ؛ إپريس حبيب ، تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٤٤٠ ؛ السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٢١٢ .

(2) Vie de Schnoudi, P. 395.

وانظر أيضاً: بتشر ، تاريخ الأمة القبطية ، ج ١ ، ص ٦-٧ .

(3) Vie de Schnoudi, PP. 410, 411, 439.

تبعوا الصديق (أى شنودة) ييجلونه، ويتكلمون عنه ... وكانوا يحاججون عنه ، ويشهدون فيه ولصالحه دائماً ... " (١).

وتوثقت كذلك صلة القديس شنودة بالإمبراطور البيزنطى ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠ م.) الذى سبق ودعاه لحضور مجمع أفسوسى ، المسكونى العالمى الثالث فى عام ٤٣١ م. ، بصحبة كيرلس بطريرك الإسكندرية ، أما هذه المرة فقد كتب الإمبراطور ثيودوسيوس رسالة للقديس ، وسلمها لحاجب يدعى أودوكسيوس Eudoxe وأرسله إلى والى أنصنا ليسلم القديس هذه الرسالة، وقد أورد الأنا وصا فى سيرته عن حياة القديس نص هذه الرسالة على النحو التالى: " أنا ثيودوسيوس الصغير ... يكتب ويسأل الأب الطاهر أنبا شنودة أن كنا مستحقين قدومك إلينا لنغتنم بركتك ، وتصلى علينا ، لأن المملكة كلها منتظرة مجيئك أيها الأب القديس. ونسألك أن لا تتوانى عن الحضور إلينا ، فنحن عطاشى إلى نظرك ... اذكرنا بصلواتك ، اخلص بالرب والسلام " (٢).

وتسلم القديس رسالة الإمبراطور وقرأها، ثم أبلغ حاملها اعتذاره عن السفر إلى العاصمة البيزنطية لكبر سنه، إذا قال له : " إني رجل طعنت فى السن ". فضلاً عن انشغاله بتدبير شئون الدير ورهبانه، مع ذلك أوصى تلميذه ويصا بأن يهتم بسفارة الإمبراطور، وأن يكرم أفرادها، ويوفر لهم سبل الراحة (٣). وبعد أن أمضى السفراء يومين فى الدير، وهموا بالعودة إلى بلادهم، طلبوا من القديس أن يرافقهم إلى العاصمة البيزنطية، فالإمبراطور والمملكة كلها فى انتظاره، ولكنه أبى، وطلب منهم أن يبلغوا الإمبراطور اعتذاره، ودعا الله له أن يثبتته على كرسيه كسائر الملوك الأتقياء، وأن يخضع له سائر المدن، وأن يظل محافظاً على الأمانة المستقيمة أمانة الرسل والحواريين (٤).

(1) Vie de Schnoudi, P. 391.

(2) Vie de Schnoudi, P. 365.

(3) Vie de Schnoudi, P. 366.

(4) Vie de Schnoudi, PP. 366, 369.

ولكن سرعان ما خرج القديس ومعه جماعة من رهبانه فى زيارة للعاصمة البيزنطية ، دفعه للذهاب إليها هذه المرة رغبته الشديدة فى أن يوضح للإمبراطور ثيودوسيوس مدى الظلم الواقع على بنى قومه من الحكام البيزنطيين المعينين من قبل العاصمة البيزنطية ، خاصة وأن الإمبراطور كما اتضح من قبل كان يقدره ويحترمه. وأحسن الإمبراطور استقبال القديس ورهبانه . كما يروى كاتب سيرته . واستمع إلى شكواه ، " وصنع مع المساكين خيراً عظيماً فى ذلك الزمان لأجل أيينا القديس"^(١). بمعنى آخر أنه قام برفع ظلم الحكام البيزنطيين عن كاهل المصريين تلبية لنداء القديس شنودة.

ولم يكتف القديس بذلك بل أخذ يعمل جاهداً من أجل إيقاظ أبناء شعبه ، وبعث الروح الوطني القومي فيهم ، حتى اعتبره البعض "علماً من أعلام إفاقة الوعى القومي"^(٢). فى حين شبهه ريفيو Revillout "بالشعلة الملتهبة التى أشعلت النيران فى قلوب المصريين ، ودفعتهم إلى الخلاص من أعدائهم"^(٣).

وعلينا أن نذكر أن القديس سخر قلمه وفكره وخطبه وكتاباته من أجل هذا الهدف ، وهو إيقاظ الوعى القومي المصرى ، والعمل على تحقيق الشخصية الاستقلالية لمصر وكنيستها ، عن بيزنطة وكنيسة القسطنطينية كخطوة أولى لتحقيق الاستقلال السياسى ، وأصبح لسان الأمة يعبر عن آمالها وآلامها ، وينفخ من روحه وقلبه المشبع بالوطنية فى شعبه ، فيبعث فيه الروح القومي الوطنى ، حتى يفوق من ثباته ، ويدرك ما فى مصريته من كرامة وعزة. وكانت دعامته وأداته ووسيلته فى تحقيق هذه الغاية ، هى اللغة القبطية ، وهذا ما يدفعنا للحديث عن فضل القديس على اللغة والأدب.

فضل القديس شنودة على اللغة القبطية والأدب القبطى:

(1) Vie de Schnoudi, P. 380, 382

(٢) عزيز سوريال عطية ، الكنيسة القبطية ، ص ٦.

(3) Revillout., Sénuti, P. 412.

قدر القديس شنودة أهمية اللغة القبطية كدعامه من أخطر دعائم القومية ، خاصة وأنها الوليد المباشر للغة المصرية القديمة ، رغم استعارتها للحروف اليونانية ، واقتباسها لبعض كلمات هذه اللغة. لذلك سعى القديس إلى العمل من أجل إعلاء شأنها ، وكانت في عصره لهجة دارجة ، فحاول تهذيبها وتخليصها من التأثيرات اليونانية البيزنطية ، باستتصال الألفاظ اليونانية الدخيلة في القداس والصلوات والترانيل القبطية ، حتى استوت على يديه لغة قومية وطنية صالحة للكتابة والخطابة ، واستطاعت اللغة القبطية بوضعها الجديد ، أن تؤدى أكثر من فائدة، فهي خير وسيلة للوصول إلى الطبقات الدنيا من الشعب في سهولة ويسر، وبالتالي يستطيع بواسطتها إيقاظ الروح الوطني الكامن داخلها ، والتعبير عما تكنه من كراهية شديدة للبيزنطيين من أجل مقاومتهم والتصدي لهم^(١).

وقد تعددت لهجات اللغة القبطية ما بين بحيرية ، وفيومية ، وأخميمية وصعيدية ، وكانت اللهجة الأخيرة مستخدمة في طيبة (الأقصر حالياً) ، وهي اللهجة التي استخدمها القديس شنودة ، وفضلها على الأخميمية ولعل السبب في ذلك يرجع - كما يذكر ورل Worrell^(٢) - إلى أن الرهبان وعلى رأسهم شنودة تحققوا من أن الحاجة ماسة إلى لغة واحدة لمصر العليا كلها ، فضلاً عن التفوق البعيد المدى الذى بلغته اللهجة الصعيدية عندئذ ، إذ كانت اللهجة المفهومة من الجميع فيما بين منف وأسوان ، مما يجعلها خير معين له في إيقاظ الروح الوطنى المصرى. ويرجع حرص القديس على إحياء اللغة القبطية ، إلى رغبته فى أن يرفع من شأن لغته القومية ، حتى تعادل اللغات المعاصرة لها ، بما فى ذلك اللغة اليونانية ، لغة الثقافة فى ذلك الزمان^(٣).

وسرعان ما جنى لقديس الثمرة إذ أخذت اللغة اليونانية فى التراجع من البلاد المصرية مع استخدام اللغة القبطية، ومع شعور المصريين بقوميتهم وكيانهم، وليس أدل على ذلك من

(١) عزيز سوريل ، الكنيسة القبطية ، ص٧ ؛ السيد الباز العرينى ، مصر البيزنطية ، ص ٣٠٧؛ الفونسو يُسطس ، المقاومة ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ ؛ رعوف حبيب ، الرهينة ، ص١٩٠.

(٢) موجز تاريخ القبط ، الترجمة العربية ، ص ١٤٩.

(٣) شنودة ماهر ، الأدب القبطى ، ص ٤٩.

العثور على إحدى البرديات اليونانية ، دونها كاتب مصري كان يجيد اليونانية والقبطية معاً ، ويذكر أنه يكتب باليونانية نيابة عن رجل مصري وزوجته ، ويظهر من البردية أن الزوج يكتب بالديموطيقية وليس باليونانية ، وأن الزوجة أمية ، وتوقيع الزوج فى البردية مدون بالديموطيقية كذلك^(١). علاوة على ذلك فإن ظهور اللغة القبطية فى أديرة مصر وعلى رأسها الدير الأبيض ، أكسب الكنيسة المصرية طابعاً قومياً قوياً^(٢).

وإذا كان فضل القديس على اللغة القبطية عظيم ، فضله على الأدب القبطي أعظم ، إذا كان الرجل ذا ذوق أدبي ، حتى عد أبرع من خطب ، وأبلغ من كتب باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية ، وخير شاهد على ذلك ما تركه من تراث أدبي ضخم ، يعتبر من أروع صفحات الأدب القبطي على الإطلاق ، ويتألف من الخطب والعظات^(٣)، التى لم تكن قاصرة على الرهبان داخل الدير فحسب ، وما دارت حوله من حث على ممارسة الفضائل ومداومة الصلاة ومحاسبة النفس والتوبة ، بل شملت كل أفراد الشعب ، فقد كان ديره مفتوحاً أمام المصريين جميعاً . كما سبق أن ذكرنا . فكان يدعوهم فيها إلى محبة الله والناس ، وحفظ الحواس والجوارح ، وعدم التذمر على الحياة رغم صعوبتها ، ومعاشرة الأبرار ، ومساعدة المحتاجين ، وممارسة حياة التقوى والصلاح ، والبعد عن الشهوات وغيرها ، فضلاً عن محاربه بهذه العظات لبعض العادات السيئة ، التى عرفها مجتمع مصر فى العصر البيزنطى ، ومما جاء فى إحدى عظاته: " أن النفس تتوهم أنها قريبة من الله ، وهى بعيدة عنه ، ومطالعتها خفية عن الناس وظاهرة له ، كالطاحونة التى تدور بلا حبوب"^(٤). وقد ذاعت عظاته حتى احتلت مكاناً فى قراءات الكنيسة القبطية.

(١) انظر: ألفونسو يُسطس ، المقاومة الوطنية ، ص ١٥٩ .

(٢) إيدرس بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، الترجمة العربية ، ص ١٧١ .

(٣) عن هذه العظات ، انظر: ما سبق هامش ٦٥ ؛ وانظر أيضاً: لوكاس الأنبا بيشوى ، سيرة وأقوال وعظات ٣٦ .

٦٥ ؛ رشى عازر ، من أبطال البرية ، ص٣٣ .٣٨ ؛ شنودة ماهر ، الأدب القبطى ، ص ٤٩ ، ٥٠ ؛ أوليرى ،

قديسو مصر ، الترجمة العربية ، ص٢٠٤ ؛ مجدى سلامة ، الأنبا شنودة ، ص ٥٠ . ٥١ .

(٤) لوكاس الأنبا بيشوى ، سيرة وأقوال ، ص ٤٩ .

وتضمن إنتاج القديس شنودة الأدبي أيضاً العديد من الرسائل والمقالات ، فضلاً عن التفاسير والكتابات وغيرها ، ومازال العديد من كتاباته موزعاً في متاحف العالم ومكتباته ، خاصة في متحف نابلي بإيطاليا ، وفي متحف اللوفر بفرنسا ، وكذلك المكتبة الوطنية في باريس ، والتي يوجد بها العديد من المخطوطات التي كتبها القديس ، وقد قام كل من أميلينو Amelineau وريفيو Revillout - وهما من أعضاء المعهد الفرنسي للآثار بمصر . بنشر العديد منها مع ترجمة بالفرنسية ، وتشمل هذه المخطوطات مجموعة من الخطابات والرسائل منها ماهو للإمبراطور ثيودوسيوس الثاني وللبطيريك تيموثاوس ، فضلاً عن رسائل كتبها للرهبان والراهبات ، وعددها إحدى عشرة رسالة ، علاوة على عدد كبير من الخطب والمواعظ ، الموجة للرهبان لمقاومة الوثنية وظلم كبار الحكام ، ومنها ما يعالج موضوعات دينية وأدبية مختلفة^(١).

ومن كتابات القديس كذلك دراسة خاصة عن العبادة المصرية القديمة ، أورد فيها تفاصيل عديدة عن هذه العبادة وعن إيزيس وحورس ، إلى جانب تفاصيل عن الآلهة المصرية ، والرموز التي استخدمها المصريون مثل التماسيح والجعران وغيرها. وقد كتب هذه الدراسة في شبابه ، بأسلوب معتدل ، ولكن للأسف الشديد لم يبق من هذه الدراسة إلا شذرات كما يذكر ريفيو^(٢).

وبينما يرى البعض^(٣) أن أسلوب القديس ، كان يتمتع بطلاقة جميلة وبلاغة مع البساطة ، لذلك كان له مفعول السحر على أفهام معاصريه ، يرى البعض الآخر^(٤) أن أسلوبه لم يكن مصقولاً ، ولكنه كان يصاغ في قالب خطابي بليغ ، ليست به سلاسة ، إذ لم يكن القديس يبحث عن المعرفة وجمال الألفاظ ، بل كان مالكاً لخاصية اللغة يكيفها كيفما يشاء.

(١) رعوف حبيب ، الرهينة ، ص ١٩١ .

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: Revillout, Sénuti le prophète, PP. 423-426.

(3) Revillout, Sénuti le prophète, P. 412

(٤) ورن ، موجز تاريخ القبط ، الترجمة العربية ، ص ١٥٤ .

والحقيقة أن إنتاج القديس الأدبي الغزير ، يعد من أروع صفات الأدب القبطى ، فى تاريخ مصر فى العصر البيزنطى على الإطلاق ، كتب جميعه باللهجة الصعيدية ، التى ما لبثت أن أصبحت لغة الأدب القبطى فى أزهى عصوره ، بل ولغة الكنيسة القبطية المصرية لعدة قرون حتى بعد رحيل القديس ، لذلك لا عجب أن عرف القديس شنودة فى تاريخ الأدب القبطى بأنه " أعظم كتابه "(١). ولا عجب كذلك أن انتشرت كتاباته فى جميع أرجاء مصر ، بل وتداولتها الأجيال جيل بعد جيل.

وتجدر الإشارة إلى أن للقديس شنودة فضل على حركة الترجمة ، فقد اهتم بالترجمة فى ديريه ، وأشرف عليها بنفسه ، وليس أدل على ذلك من أن كثيراً من الموضوعات التى ترجمت عن اليونانية ، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، قد تمت فى الدير الأبيض ، دير القديس شنودة(٢).

وللقديس أيضاً مآثر على الأدب الوطنى منها تلك الرواية التاريخية الممزوجة بالخيال ، والتى تحكى قصة غزو قمييز ملك الفرس لمصر ، واستبسال المصريين فى مقاومته رغم تهديده لهم ، ويرجح أن كاتبها هو أحد رهبان الدير الأبيض ، فضلاً عن أنها كتبت باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية ، وفى أواخر العصر البيزنطى فى مصر ، وهدفها إذكاء الروح القومى لدى المصريين لمقاومة أعدائهم(٣).

جملة القول أنه كان لكتابات القديس شنودة وأبناء ديريه ، أثر كبير فى توعية المصريين ، وتبصيرهم بحقوقهم ، بدليل وقفهم التاريخية من قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١ م. المسكونى الرابع ، الذى عقده الإمبراطور مرقيان ، خليفة ثيودوسيوس الثانى ، فقد قرر هذا المجمع إدانة الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتى ، وهو المذهب الذى تدين به الكنيسة المصرية ، وأيد

(١) نفسه ، ص ١٥٢ .

(٢) شنودة ماهر ، الأدب القبطى ، ص ٥١ .

(٣) عن تفاصيل هذه الرواية ، انظر: مراد كامل ، القبط فى ركب الحضارة ، ص ٢٢ . ٢٥ ؛ عزيز سوريال عطية ، الكنيسة القبطية ، ص ٨ . ٩ ؛ الفونسو يسطس ، المقاومة ، ص ١٦٠ .

مذهب الطبيعتين فى السيد المسيح وترك بذلك جرحاً غائراً فى نفوس المصريين ، فيشير أحد الأساقفة إلى حالة شعب مصر ، بعد صدور قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١ م. بقوله : " فى عهد قنصلية دنيا ميتوس تملك شعب الإسكندرية ، وشعب مصر ، جنون شيطانى عجيب ، فالكبار والصغار والأرقاء والأحرار والرهبان والكهنة وسكان البلاد الوطنيين ... كل هؤلاء فقدوا عقولهم وقدرتهم على التعبير "(١) ورفض المصريون بشدة أن يحنوا رؤوسهم ، بأن يقبلوا المذهب الذى يخالف عقيدتهم الأرثوذكسية ، واتسعت الهوة بين كنيستهم وكنيسة القسطنطينية ، التى آمنت بقرارات مجمع خلقدونية ، لدرجة أن الكنيسة المصرية أبطلت استخدام اللغة اليونانية فى طقوسها ، وأحلت محلها اللغة القبطية ، أى أنها خلعت الرداء البيزنطى ، وبدأت ترتدى الرداء المصرى القومى الوطنى ، وتطلع المصريون جميعاً إلى اليوم الذى يتخلصون فيه من الخضوع للسيادة البيزنطية. هذه اليقظة المتأخرة للمصريين كأمة وكنيسة ، ما كانت تحدث لولا المبادئ التى أرسها القديس شنودة فى نفوس شعبه وقومه(٢).

وما لبث القديس شنودة أن توفى فى نفس العام ، الذى عقد فيه مجمع خلقدونية ، وتحديداً فى السابع من أبيب سنة ١٦٧ للشهداء الموافق ٢ يوليو ٤٥١ م. بعد أن طعن فى السن ، إذ بلغ الثمانية عشرة بعد المائة ، وبعد رحلة طويلة من الجهاد فى سبيل دينه ووطنه وشعبه ، كذلك بعد أن ترك سجلاً حافلاً بجلائل الأعمال التى لا تزال تخلد ذكراه حتى اليوم(٣).

وختاماً إذا كان لعظمة كل عظيم سر ، فإن عظمة القديس شنودة الأخمى الأديبى ، تكمن فى كونه بحق أعجب شخصية أنجبها القبط ، فلم يكن رجل دين فحسب ، بل كان زعيماً

(١) زبيدة عطا " الشخصية القبطية وموقفها من الكنيسة والدولة فى العصر البيزنطى " ، بحث منشور ضمن ندوة الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م ، ص ٥٨ .

(٢) انظر: رأفت عبدالحميد وطارق منصور ، تاريخ مصر فى العصر البيزنطى ، ص ١٧٧ ؛ سيد الناصرى ، شنودة ، ٤٠ ، ٤٤ ؛ مجدى سلامة ، الأنبا شنودة ، ص ٢١ .

(٣) عن وفاة القديس انظر: Vie de Schnoudi, PP. 468-473 ؛ عزيز سوربال عطية ، نشأة الرهبنة ، ص ١٧٦ ؛ بربارة واترسون ، أقباط مصر ، ترجمة: إبراهيم سلامة ، القاهرة ٢٠٠٢م ، ص ١٣٤ ؛ السنكسار ، وضع مجموع من الآباء القديسين ، القاهرة ١٩٧٢م ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ ؛ رءوف حبيب ، الرهبنة ، ص ١٩١ .

سياسياً ، ومصلاً اجتماعياً ، وبطلاً قومياً ، وأديباً وطنياً ، وفخراً للكنيسة القبطية ، لذلك لا عجب أن حفظت له مصر من الذكرى ، ما حفظته لكبار قديسيها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية والمعربة:

أبو المكارم: تاريخ أبو المكارم عن الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر بالوجه القبلى ، المسمى بتاريخ أبو صالح الأرمنى ، الجزء الثانى ، إعداد الأئبا صموئيل ، القاهرة ١٩٩٢م.

أوليرى: قديسو مصر حسب التقويم القبطى ، ترجمة: ميخائيل مكسى إسكندر ، القاهرة ٢٠٠٠م.

إبريس حبيب المصرى: تاريخ الكنيسة القبطية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٢م.

إيسيدوروس (الأنبا) : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٩١م.

بتشر: تاريخ الأمة القبطية ، م ٢ ، تعريب: إسكندر تادرس ، القاهرة ١٩٠١م.

بربارة واترسون: أقباط مصر ، ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم ، القاهرة ٢٠٠٢م.

بلادىوس وجيروم (القديسان) : بستان القديسين ، ترجمة وتعليق: ميخائيل مكسى إسكندر ، القاهرة ١٩٩٩م.

تادرس يعقوب ملطى (القمص) : قاموس آباء الكنيسة وقديسيها مع بعض الشخصيات الكنسية ، القاهرة ٢٠٠١م.

حسنى فكرى سكللا: أخميم مدينة الشهداء فى العصر القبطى ، سوهاج ، بدون تاريخ.

حكيم أمين: دراسات فى تاريخ الرهبانية والديرية المصرية مع دراسة مقارنة لرهبنة وادى النطرون حتى الفتح العربى ، القاهرة ١٩٦٣م.

حنانيا إلياس كساب (ارشمندريت): مجموعة الشرع الكنسى أو قوانين الكنيسة المسيحية الجامعة ، بيروت . دمشق ١٩٧٥م.

- دورليان (بول شينو): القديسون المصريون ، ترجمة: ميخائيل مكسى إسكندر ومريام جميل سليمان ، جزءان فى مجلد واحد ، القاهرة ٢٠٠٢م.
- رأفت عبدالحميد: " الرهبانية المصرية والسلطة البيزنطية " منشور ضمن ندوة الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور ، القاهرة ٢٠٠٢م.
- رأفت عبدالحميد و طارق منصور: مصر فى العصر البيزنطى (٦٤١.٢٨٤م) ، القاهرة ٢٠٠١م.
- رعوف حبيب: الرهبة الديرية فى مصر ، القاهرة ١٩٧٨م.
- رشدى عازر أقلايوس: من أبطال الديرية الأنبا شنودة رئيس المتوحدين ، إسكندرية ، بدون تاريخ.
- زيدة عطا: " الشخصية القبطية وموقفها من الكنيسة والدولة فى العصر البيزنطى " منشور ضمن أعمال ندوة الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور ، القاهرة ٢٠٠٢م.
- ساجى سليمان عزيز: أنبا شنودة رئيس المتوحدين ، إسكندرية ١٩٩٣م،
- سليم نسيم: تاريخ التربية القبطية ، القاهرة ١٩٦٣م.
- سومرز كلارك: الآثار القبطية فى وادى النيل ، ترجمة إبراهيم سلامة ، القاهرة ١٩٩٧م.
- سيد أحمد على الناصرى: " شنودة مؤسس الكنيسة الوطنية المصرية " من أعمال ندوة الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور ، القاهرة ٢٠٠٢م.
- السيد الباز العرينى: مصر البيزنطية ، القاهرة ١٩٦١م.
- شنودة ماهر اسحق: الأدب القبطى ، القاهرة ١٩٩٨م.
- عادل محمد سليم: " الدور الوطنى المصرى فى العصر البيزنطى " بحث منشور فى مجلة مركز الدراسات البردية ، م ٧ ، القاهرة ١٩٩١م.

عزيز سوريل عطية: " نشأة الرهينة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس " الرسالة الثالثة جمعية مارمينا بالإسكندرية، مايو ١٩٤٨م.

: " الكنيسة القبطية والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى " مقال منشور فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، م ٣ مايو ١٩٥٠م ، صفحات ١٤١.

على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ، ج ٨ ، القاهرة ١٩٩٠م.

غريغوريوس (الأنبا): تاريخ الفكر الدينى المسيحى ما بين الإسكندرية وروما وبيزنطة ، القاهرة ١٩٩٢م.

ألفونسو يُسطس: " المقاومة الوطنية فى مصر البيزنطية " رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة عين شمس ١٩٧٥م.

القديس العظيم الأنبا شنودة: رئيس المتوحدين بالجبل الغربى بسوهاج الدير الأبيض والدير الأحمر ، الناشر دير القديس العظيم الأنبا شنودة ، سوهاج ١٩٩٨م.

كتاب السنكسار: وضع مجموعة من الآباء القديسين ، جزءان ، القاهرة ١٩٧٢م.

كيرلس الأنطونى (القمص): عصر المجامع ، القاهرة ١٩٥٢م.

لوكاس الأنبا بيشوى (الراهب): سيرة وأقوال وعظات الأنبا شنودة رئيس المتوحدين ، مصر ١٩٩٤م.

متاؤس (الأنبا): سيرة القديس الأنبا ويصا تلميذ الأنبا شنودة ومقتطفات من أقواله ، مصر بدون تاريخ.

مجدى سلامة: الأنبا شنودة رئيس المتوحدين الصعيدى ، القاهرة ١٩٩٩م.

محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية فى عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م ،
الجزء الرابع ، القسم الثانى ، مديريات أسيوط وجرجا وقنا أسوان ، القاهرة
١٩٦٣م.

مصطفى العبادى: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، إسكندرية ١٩٩٢م.

المقريزى (أحمد بن على): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، م ٢ ، بيروت بدون تاريخ.

منير شكرى: المسيحية ما تدين به للقبط ، رسالة مارمينا ، إسكندرية ١٩٥٤م.

ميخائيل مكسى إسكندر: المخطوط الأصيل لسيرة وأعمال القديس العظيم أنبا شنودة رئيس
المتوحدين ٣٤٣-٤٥٢م (حياته - معجزاته ، مختارات من عظاته) ،
من النص الأصيل للأنبا " ويصا " تلميذه والذى ترجمه أميلينو إلى
الفرنسية ، القاهرة ٢٠٠٢م.

والترز (أ.ك): الأديرة الأثرية فى مصر ، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم ، القاهرة ٢٠٠٢م.

ورل (وليم): موجز تاريخ القبط ، ترجمه عن الإنجليزية مراد كامل ، إسكندرية ١٩٥٤م.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية:

Amelineau (ed), Vie de Schnoudi (traduite de L' Arabe) In Mémoires
Publiés par les membres de la Mission Archeologique
Francaise au Caire (1885-1886). T. 4, Paris. (1888).

Kuhn, K. H., " Shenute, Saint " , In The Coptic Encyclopedia, Vol. 7,
New York, (1991), PP. 2131-2133.

Revillout, E., "Sénuti, Le prophète " dans Revue de l'Histoire des
Religions, T. 8, Paris. (1883), PP. 401-467.

Wilfred Griggs., Early Egyptian Christianity From its Origins to 451,
Leiden, New York. (1991).